Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.

Columbia University in the City of New York

THE LIBRARIES

اقرأ

محمود تيمور

زامر الحيّ

دار المعارف بمصر

زامر الحيّ

محمود تيمور

زامر الحي

اقرأ ١٢٩

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٢٩ – أول سبتمبر ١٩٥٣

893.7T13L
Z7

جميع الحقوق محفوظة
لدار المعارف بمصر

زامر الحى . . .

كنت وأنا فى أوج الصبا أسكن حىّ « درب سعادة » ، ذلك الحى العتيق الذى تتزاحم دوره ، ويتضايق طريقه ، حتى لكأن الدور على جانبيه توشك أن تتعانق . . .

ولم يكن روّاد هذا الحىّ كلهم من سكانه ، فمن بين أهليه طوائف من الناس تختلف إليه طرفى النهار وبعض الليل ، لا يكادون ينقطعون عنه فى يوم ، ولا يخفى عليهم من سكانه أحد ، أولئك هم الباعة الجوّالون ، والعفاة من طلاب الصدقات ، وغيرهم من المرتزقة بفنون الملاهى وألوان التسلية وضروب الإضحاك والتفكيه .

وقبيل الصيف ، أظلتنى أيام الامتحان ، فألزمتنى الدار أستذكر وأستوعب ، فإذا ثقلت علىّ الوطأة ، وذار بى رأسى ، خرجت إلى الباب أتخذ به مقعداً يشهدنى مواكب الطريق .

وفيما أنا جالس ذات يوم ، صافحتْ سمعى رنات لحن حنون تبعثها صفارة من مكان قريب ، وما برحت هذه الرنات

الشجية تتوارد علىّ مستبينة وضّاحة ، حتى تجلى بها زامر للحىّ لم يكن لى به عهد .

وجه ضامر عليه سماحة ، تزينه لحية خفيفة كساها الخضاب ، وزىّ على سذاجته بادى النظافة رائق الهندام ، ومشية وادعة مسترخية تتطلع فيها أنظار الرجل إلى السماء ، كأنها تستملى منها ما يستوى عليه النغم من إيقاع .

وراعنى من لحن ذلك الناى أنه كان حزين النبرة ، ينبض باللوعة ، وكأنه ينطوى على سر حبيس يحاول أن يصونه ، ولكن السر يأبى إلا أن يتسلل فى حنايا النغم ، كأنما هو نفثة مصدور .

صادف هذا اللحن من نفسى هوى ، بل مسّ من قلبى الشغاف ، فجعلت أحرص على الجلوس ساعة الأصيل ، أرتقب صاحب الناى فى موعده المألوف ، فإذا مر بى الصوت ، وغاب عن سمعى الصدى ، أحسست بروحى تتبعه ، هائمة معـــه .

وعلى مر الأصائل تم التعارف بينى وبين شيخ الناى ، أستوقفه بعض وقت ، وأدعوه إلى الجلوس بجانبى فى الأحايين .

وكان كلانا يأنس بصاحبه ، يجاذبه ألوان الأحاديث ... أما هو فلا تفرغ له جعبة من الطرائف والنوادر والحكايات ، يحسن كيف يرويها خلابة الوصف ، شائقة العرض . وأما أنا فلا أمل سؤاله فى شأنه : كيف كانت أطوار حياته ، وأية آفاق تقاذفته ؟ فيجيبنى إجابة المقلّ الكتوم ، يضن بالإفاضة ، ويتحرز من التصريح .

ومما كنت التزمته فى هذه الأيام التى أتأهب فيها للامتحان أن أؤدى الفرائض فى أوقاتها لا أتهاون ، وكان على مقربة من دارنا مسجد صغير أقصده طالباً صلاة الجماعة ، وحضر وقت المغرب وأنا بالباب أتحدث إلى شيخ النادى ، فدعوته معى إلى المسجد ، فاشرأب تائه النظر فى كبد السماء ، وهو يقول مجمجماً :

أعفنى . . .

ثم لملم نفسه يهم بالمضىّ عنى ، وهو يقول :

قم لصلاتك . . . إنى ذاهب فى سبيلى !

وهرول فى مشيته تخفيه طيات الطريق ، فوقع تصرفه من نفسى موقع الغرابة ، واستريبت بأمره ، ولكنى شغلت عنه

بإقامة الصلاة .

وفى أمسية من الأماسىّ ، قفلت من المسجد بعد أداء فريضة المغرب إلى الدار ، فلمحت شيخ النادى يحوم حول الباب كأنه يتفقدنى ، فأخذت بكتفه أبادره بقولى :

أنت هنا ؟ . . . أطال انتظارك إيادى ؟

— حضرت منذ قليل ، وأطلقت صوت النادى يدعوك .

— كنت فى المسجد . . . لماذا لا أصادفك فيه ؟

فوجم الرجل ، واكفهر وجهه ، ثم رجفت شفتاه دون كلام . . . فحدقت إليه أقول :

ماذا يقعد بك عن المسجد ؟

— المسجد ؟ المسجد ؟

واستبانت الرعشة فى صوته وهو يقول :

إنما الأطهار من عباد الله هم الذين يؤمّون بيوت الله .

وما عتم أن استدار عنى ينفتل ماضياً ، وهو يلوّح لى مودّعاً بيده . فانقبضت نفسى مما رأيت ، وبلغت بى الحيرة فى شأن الرجل كبير مبلغ ، وأقسمت لأعرفن من جلية أمره ما يخفى .

ما بال صاحب الناى يتحدث عن الأطهار كأنهم من طينة غير طينته ، وكأنهم على شاكلة غير شاكلته ؟ ومن الأطهار إن لم يكن من بينهم هذا الرجل الذى تنطق سماته وقسماته بالطيبة والصلاح ؟ ومن أولى بالصلاة من ذلك الذى يأكل لقمته من كسب حلال ، فى عفة نفس ، وشرف سعى ، لا يشرك الناس فى نقائص الناس ؟

ولبث صاحب الناى على حاله فترة من الزمن ، وهو لغز عصىّ يستغلق علىّ ، وكأنما زادنى هذا الإبهام الذى يكتنفه إقبالا عليه ، وتعلقاً به . ولكنى مع ذلك تهيبت أن أقتحم عليه سره ، خشية أن يضيق بى ، فينفر منى .

وتواصل الود بيننا . . . أسبغ عليه من عطف ولطف ، وأبثه الحديث فى خاصة أمرى ، وأطلب مشورته فيما يساورنى من مشكلات دنياى . وهو يمحضنى النصح ، ويقدر ثقتى به ، ويكبر ما أستودعه من سرى ، حتى شرع يرفع الكلفة بينه وبينى .

وكان فى الحين بعد الحين يسترسل فى إنشاد بعض الأهازيج الريفية التى تنطوى فيها لواعج الحب وتباريح الهيام .

وكأن هذه الأناشيد تترجم بالكلام ما كان الناى يرسله من أنغام . . . فإذا فرغ من إنشاده ، بعث من أعماق صدره تنهدات حارّة ، وأفاض فى حديث عاطفى مشبوب ، يقص علىّ ما يلقاه العاشقون من ضروب الوجد والحنين ، وما يعترض طريقهم من عقبات وأشواك ، وأنا أخالته نظرات تستشف ما وراء تلك النفس المعذبة الحيرى .

وبينما كنت يوماً جالساً إليه ، وقد ترنم بالغزل ، وقص علىّ ما قص من مصارع العشاق ، جذبت يده إلىّ ملاطفاً ، وأنا أحملق فيه ، وعلى فمى بتسامة ، وقلت مباغتاً فى صوت رفيق :

يميناً لقد كانت لك عصفورة . . . عصفورة طارت من عشك !

فرعدت يد الرجل فى يدى ، وزوى بصره عنى ، وجمجم يقول :

عصفورة ؟ عش ؟ أية عصفورة ؟ وأى عش ؟

واستأنفت أقول :

يميناً لقد لوّعك الحب ، وإن قلبك لينطوى على جرح دفين !

فأطرق يشدّ على يدى قائلا :

دعنى بربك دعنى . . . خلّنى وما بى . . . إنه سرّى !

ثم تغشاه الصمت هنيهة ، وأنظاره تسبح فى أعراض الأفق ، وإذا هو تنفرج شفتاه ،رقيق الصوت ، حزين اللهجة كأنما يناجى نفسه . . . يقول :

« . . . يحكى أن . . . يحكى أن فتى يدعى « سرحان » درج فى قرية تسمى « الشباريق » ،وكان أخوه الشيخ «محمد الرخ » إمام المسجد الكبير فى القرية يكفله منذ الطفولة ، وقد أحسن تنشئته وتربيته ، فعلمه القراءة والخط ، وأحفظه ما استطاع أن يحفظ من كتاب الله ، واستعان به فى خدمة المسجد ، وأداء الأذان فى مواقيت الصلاة .

شغف هذا الفتى منذ صباه برجل ينتسب إلى بعض الطرق الصوفية لا يخلو من لوثة ، أكبر همه النفخ فى صفارته ، وترديد الأذكار ليل نهار ، فاتخذه الفتى أستاذاً له ، لقن منه فن الصفير ، وروى عنه الأغانى والترانيم .

ويوماً ، والفتى فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وقف

على رأس الطريق ضحوة يرقب ، فإذا أخوه الإمام قادم بعد غيبة عن القرية نحو شهر . . . وراع الفتى أن يرى أخاه قد اصطحب إحدى النساء منتقبة تكسوها الملاءة السوداء .

من تكون ؟ إن امرأة أخيه قضت نحبها منذ أشهر قلال ، وما كان لأخيه أن يصطحب من النساء إلا ذوات القربى ، وليس يلوح على هذه المرأة أنها من أهله . . .

وبينما الفتى فى دهشته ، إذ دنا منه أخوه يرغب إليه فى أن يحمل عن صاحبته ما فى يدها من صرّة المتاع ، وهو يقول له :

صافح زوج أخيك !

وعقدت البغتة لسان الفتى ، فمشى عاثر الخطا تتنازعه خجلة وفضول . . . وهمهم يريد التحية ، ولا يدرى بأى قول نطق ، وما لبث أن تناول صرة المتاع مسرعاً إلى الدار .

كانت عروس الإمام فى زهرة الصبا ، وضيئة الطلعة ، ما كاد الفتى يعايشها أياماً حتى أنس بها أنساً لم يحسه لأحد من من قبل . وكلما تقادم العهد جدّ من ألفة الفتى لها ما يملأ نفسه هماً ، وبان له أخيراً على غير شك أنه يهواها ، وأن الهوى

يذيبه ، فهاله الأمر ، واستنكف أن تكون له هذه العاطفة الذميمة نحو زوج أخيه . . . أخيه الذى هو فى مقام أبيه ، ولىّ نعمته فى عيشه كله .

وعالج الفتى أن يرد عن قلبه ذلك الهوى الغشوم ، فحرص دوماً على ألا يخلو بزوج أخيه ، وتحاشى جاهداً أن يطارحها الحديث ، فكان كأنما ينفخ فى النار ، يزيدها من ضرام . . .

ولم يجد بداً من أن يقبر فى أعماق نفسه سره الفاضح ، لا سلوى له إلا صفارة من قصب ، يودعها نفثات ملهوفة من صدره المقروح .

وضاق الفتى ذرعاً بما كان يلحظه من رعاية زوج أخيه له ، ويرها به ، ولا سيما فى مغيب أخيه . . . فإذا خصته بشىء من طريف ما تطهو من طعام ، تأبّى أن يقربه ، متلمساً ألوان المعاذير ، وإذا تعللت ببعض الأسباب لإطالة حديثها معه ، تعمد اقتضاب الكلام ، بغية الإفلات .

وذات يوم ، والشمس على أهبة الغروب ، كان الفتى خالياً بنفسه خلف الدار ، آخذاً بصفارته يبثها نجواه ، وهو تائه الفكر هيمان ، فاستشعر على حين بغتة أن خلوته يشوبها

طارق . وما إن تلفت حوله حتى لمحت عينه « هنيّة » زوج أخيه تواريها كومة من حطب عن كثب ، وهى ترنو إليه فى سكينة وخشوع ، فملكته رعشة ، ونهض من فوره يقول :

أنت هنا ؟

فأجابته فى صوت عطوف :

حضرت منذ قليل .

فقال لها فى اضطراب :

ما أتى بك ؟

فكسرت عينها ، وهى تقول :

جذبنى صفيرك .

ورآها تتهادى إليه حتى واجهته ، فقلقت قدماه ، يبغى هرباً . . . فأمسكت « هنية » بطرف كمه تقول :

ماذا يعجلك ؟ لتلبث قليلا . . .

فصاح الفتى صيحة مختنق ، وهو يدير عنها بصره ، وينحيها عنه بيده ، قائلا :

دعينى . . . دعينى . . .

فهمهمت تقول له فى مسكنة وانكسار :

ماذا يبعثك على كرهى ؟ لم تضيق بى ؟

واستبدت بها نوبة من البكاء والنحيب ، فأحس الفتى شغاف قلبه يتهتك ، ورأسه تغلى مراجله ، واقترب منها يقول فى تلعثم :

أنا أكرهك يا « هنية » ؟

فأشرعت إليه عيناً تشرق بالدمع ، وفى نظراتها تعرّف واستخبار ، فوقف حيالها يحكم أوصاله ، ويقهر عاطفته ، فإذا هى تلقى برأسها على صدره ، ويداها تتشبثان بمنكبيه ، وجفناها ينسدلان ، وخيل إليه أنها توشك أن تتهاوى ، فألفى نفسه يطوقها بذراعيه ، وكانت بينهما فورة من تقبيل وعناق !

وأنبههما من نشوة الصبوة أصوات حملها النسيم من بعيد ، فتطلعت أعينهما هنا وهنالك ، فاستبانت لهما على جسر الترعة أشباح سيرها وئيد ، فارتجفت « هنية » وهى تقول :

هذا أخوك فى صحبة بعض مستأجرى أرضه .

وقفزت تدخل الدار ؛ فاتخذ الفتى طريقه فى الحقول يطيل سيره ، وهو يحاول أن يراجع صحوه من سكرة تلك الساعة .

وعاد الفتى إلى الدار ، فوافق أخاه جالساً إلى صينية الطعام ،

وقد شرع يصيب عشاءه ، فلما وقع بصر الشيخ على أخيه ، صاح به وفى قوله رنة فرح واستبشار :

أين كنت ؟ ما أطيب الليلة ! . . . أقبل . . . أقبل . . .

فوقف الفتى حائراً لا ينبس ، وواصل الشيخ قوله متضاحكاً :

سنة كلها خير وبركة . . . لقد أجرنا الأرض الليلة بقيمة فاقت ما كنا نؤمل . . . الحمد لله . . . تعال فخذ نصيبك معى من الطعام .

فجلس الفتى إلى الصينية قبالة أخيه ، وطفق يأكل ، يده إلى فمه تلقى باللقيمات وترجع إلى الصينية تصيب منها عوداً على بدء ، وذلك على غير وعى منه ولا تيقظ ، عبثا يحاول أن يلملم ما تشعث من فكره ، ويضبط ما اهتاج من أعصابه .

وفى الفينة بعد الفينة تهلّ « هنية » على الحجرة بجديد من الصحاف تارة وبقلة الماء تارة ، وهى تسير ممتقعة الوجه ، مسترخية الجفنين ، لا تستطيع لخطوها وزناً .

وما إن تقبل على الحجرة ، حتى ينكس الفتى رأسه ، ويمضى فى الطعام متشاغلا به عجلان ، ولم تكن « هنية »

تلبث إلا ريثما تضع الأشياء فى مواضعها وتعود أدراجها على الفور .

أما زوجها الشيخ ، فكان متطلقاً يثرثر فى حديثه عن الإجارة ، وهو بما ظفر به مغتبط تيّاه .

وبغتة ، والفتى منكبّ على صحفة طعامه ، تطن حول سمعه كلمات أخيه لا يعى منها حرفاً ، أزعجه من غفوته سقطة جسم فى الحجرة ، وتحطم بعض الآنية . فالتفت يتعرف الأمر ، فإذا أخوه ينهض مسرعاً إلى زوجه ، وقد تهاوت على الأرض ، وانزلقت من يدها الصحاف ، وسمع أخاه يقول :

ما بك يا « هنية » ؟

فاعتدلت المرأة تصلح شأنها ، وهى تهمهم :

لا شىء . . . أصابنى دوار !

وأنهضها الشيخ بين يديه ، وصحبها إلى مخدعها قائلا لها فى تحنن :

استريحى قليلا .

ولزمها حيناً يعنى بها ويلاطفها ، والفتى ماكث فى مكانه يرقب ما يجرى مخبول النظرات ، كأنه تمثال من حجر ،

لا يملك لنفسه من حراك .

ورجع الشيخ إلى مكانه من صينية الطعام يستأنف عشاءه ، وقال للفتى :

أجهدتْ المسكينة نفسها فى أعمال الدار .

ولما لم يبادله أخوه الحديث ، ممسكاً عن الطعام ، أردف قائلا وقد رفع إليه بصره :

مالك لا تأكل ؟

فعالج الفتى أن يجيب ، وبعد لأى قال متحشرج الصوت ، يزيغ بصره عن أخيه :

اكتفيت !

وأعجب ما كان من أمر الفتى أنه كان فى هذه الساعة لا يطيق أن ينظر إلى أخيه ، وأن يتابع الحديث معه . . . إنه ليجد فى نفسه طارئاً من الشعور بأنه يمقت أخاه ، وينكر عليه حظه من الحياة !

وهبّ واقفاً يطلب الخروج ، فسمع الشيخ يقول له :

إلى أين ؟

— إلى المسجد ، لأغلق بابه . . .

وأدبر عن الدار ، تقوده قدماه إلى البقعة التى كان فيها منذ قليل مع « هنية » يستمرئان متعة اللقاء . . . وما هى إلا أن طاف ببصره يمنة ويسرة ، ثم انخرط فى نشيج وبكاء ، وظل على حاله فترة ، وكأن روحه تذوب فى مسيل الدموع !

ولا ينسى الفتى كيف قضى تلك الليلة العسراء ، فقد مرت به ساعاتها أرقاً تتقاذفه الأركان والجدران ، خلف الدار ، فإذا غلبته إغفاءة تمثل له شبح أخيه الشيخ شائه الوجه ، تتلظى عيناه ، فى يده يلتمع سيف المسجد الخشبى ، وما يلبث أن يهوى به على جسد الفتى فى قساوة وضراوة يقطعه إرباً إرباً ، فيصحو الفتى مذعوراً محموم الأوصال كأنما يريد أن ينسلخ من جلده .

ولم تكد تتجلى عنه ظلمات الليل ، وتنضح جبينه أنداء السحَر ، حتى سكنت سورته ، وغشيه سبات ثقيل . . . فلما علا الضحا ، أين وأر ينهض ، خانته قواه ، واستشعر الخور يملك عليه جسده كله ، فجلس إلى جذع من جذوع النخيل ، والفتور ينجاب عنه شيئاً بعد شىء . وفى الحين بعد الحين تسنح لخاطره بعض الصور ، فيثور عليه الضمير ، وتخزه ندامة .

ونادى المؤذن لصلاة الظهر ، فلباه الفتى قاصداً المسجد ، وهناك وافق أخاه ، فسارع إليه يعتذر من التخلف بألوان من الأكاذيب . . . وما عتم أن هبط على يد أخيه مرتجفاً يقبلها غير مرة ، وهو يقول :

سأكون دائماً طوعك ، أبتغى مرضاتك . . . فكن راضياً عنى .

فقال له الشيخ فى تحنان :

أنا راض عنك دائماً . . . هداك الله ، ووفقك للخير ، وعصمك من الشرور والآثام . . .

فسما الفتى بعينه إلى وجه أخيه ، فطالعته قسماته تتجلى فيها محبة وإخلاص ورضا .

وأبى الفتى أن يريم المسجد بقية يومه ، فلما أسدلت العشية أستار الظلمة ، كان الفتى قد أقسم بينه وبين نفسه على أمر ، وعول على أن يبر بقسمه أبد الدهر . . . لقد لطف الله به فيما جرى من ملاقاته الآثمة لزوج أخيه ، ولن يعود لمثلها ما بقيت فيه حياة .

وتوالت على الفتى أيام قضى أكثر ساعاتها فى المسجد ،

يطيل الصلاة ، ويكثر التسبيح ، وكان لا يتوخى الدار إلا عند الضرورة القصوى ، بمحضر من أخيه لا بد . . . فأما « هنية » فكان لا يكلمها إلا لماماً فى اقتضاب ، متحاشياً أن تلتقى عيناها بعينيه ، وأما صفارته فقد هجرها فى مرمى بعيد ، لا ترطبها أنفاسه العذاب !

وانقلب الفتى ناسكاً وقور السمت ، صلب القسمات ، يريد نفسه على ألوان من التقشف والشظف ، ولكنه أدرك من أمره أنه كان سريع الذهول ، طالما أخطأ فى صلاته ، وطالما شرد فكره وهو آخذ فى تسبيحاته ، فإذا هو تتراءى له أطياف لا يكاد يتبينها حتى ترتعد فرائصه ، وهو يهمهم :

إنه معها . . . إنها له . . .

ويرجع إليه ما عزب من صحوه ، فيضرب جبهته بيده ، هاوياً على سبحته ، يستغفر الله العظيم !

وتواردت الأيام على الفتى تدور به فى آفاق شتى ، يقبل على عبادته حيناً ، وتلعب به الوساوس والتصورات حيناً آخر ، وهو فى عامة أمره يجاهد نفساً باتت فريسة الحيرة والقلق .

وبينما يكون الفتى مطمئناً إلى أنه ملك زمام شعوره ،

إذا به بغتة يروعه هتاف تتردد أصداؤه فى أحناء صدره ، فيدوى فى مسمعه صوت يقول :

إنه معها . . . إنها له !

ويخرج هائماً على وجهه ، لا يعرف إلى قرار من سبيل .

وذات عشية ، وقد جهدته نوازع نفسه الجياشة ، وطال به التطواف فى أطراف الحقول ، تحت جنح الليل ، ألفى نفسه بعد لأى تجاه المسجد ، فدخله فى استسلام ، واستلقى على الحصير يبيح لأوصاله أن تسترخى ، ولوعيه أن يغيب . . .

وفيما هو على حاله تلك ، إذ شعر بيد تلمس كتفه ، فرفع جفنيه يتبين فى ضوء القمر المنساب من الكوة ، وما هى إلا أن وثب مذعوراً كأنما لسبته عقرب !

إنها « هنية » عينها ، زوج أخيه ، يلمحها فى تلك الساعة الواغلة فى صميم الليل ، وفى ذلك المكان الذى ليس فيه سواه .

وسألها فى تلعثم :

فيم جئت ؟

— لم تحضر إلى الدار طوال يومك !

— وما شأنك بى ؟

فتدانت منه تأخذ بكتفه وهى تقول مبهورة الأنفاس :

لم يبق لى صبر . . . جئت لأراك فى خلوة . . .

— أنسيت يا « هنية » أن لك زوجاً هو أخى . . . أنت له . . . أنت له . . .

— بل إنى لك دون سواك .

وتشبثت بصدره تتعالى تنهداتها وهى تقول :

لا تكن جافياً قاسى القلب . . . كفى ما كابدت لأجلك من عذاب !

وانتظمت جسمان الفتى انتفاضة عارمة زلزلت كيانه ، وأوقدت فيه ناراً حامية ، فدارت يداه على الفور بالمرأة تطوقها وتهصر عودها ، وهوى عليها يقبلها منهومة شفتاه ، وهو يردد فى أنفاس تتلاحق :

أنتِ لى . . . لى أنا وحدى !

ولبث الفتى مع « هنيّة » ساعة من ساعات الغرام العنيف . . . ساعة رائعة يستطيع الفتى أن يقسم لك غير حانث أنه قد أصاب فيها من النعيم ما لم يصبه أحد منذ خلقت الأرض . . .

إنها فى حساب الزمن ساعة، ولكنها فى الحق أحفل عنده بالمتعة والنشوة من أعمار طوال .

نام الفتى وصاحبته متعانقين ، لا يعنيهما من الوجود شىء ، حتى لاحت فى الأفق تباشير الفجر ، ولم توقظهما إلا طرقات بالباب ، يتبعها صوت ينادى :

يا « سرحان » . . . افتح يا « سرحان » . . .

فقالت المرأة للفتى فى همس راجف :

هذا أخوك . . .

وتواصل الطرق على الباب ، وتابع الصوت نداءه :

يا « سرحان » . . . افتح يا « سرحان » . . .

فوجد الفتى نفسه يجيب عالى الصوت :

سأفتح . . . سأفتح . . .

ولم تجد المرأة بداً من التسلل ، صاعدة إلى سطح المسجد ، على حين اتخذ الفتى طريقه إلى الباب يفتحه ، ودخل أخوه مقطب الجبين يقول :

أما زلت تنام فى المسجد يا « سرحان » ؟ . . . أليست لنا دار تسعك ؟

– سرقتنى إغفاءة ، بعد صلاة العشاء ، فامتد بى النوم على الرغم منى . . .

وجلس الشيخ صامتاً بعض وقت ، ثم استأنف يقول فى قلق :

لقد صحوت من نومى ، فلم أجد « هنية » فى الدار . . .

فقال الفتى مأخوذاً يعانى التلفظ :

كيف ذلك ؟ أين ذهبت ؟

فقال الشيخ هين الصوت :

خرجت . . . أتكون قد ذهبت لتملأ الجرة ؟ أتكون فى بيت جارة لها تخبز ؟

فهمهم الفتى :

لا بد أن يكون ذلك لا بد . . .

وخلا الشيخ لنفسه صامتاً هنيهة ، ثم نهض قائلا :

هلم إلى الصلاة يا « سرحان » .

ومثل الفتى عن كثب من أخيه يركع ويسجد ، وكانت صلاة آثمة باركها الشيطان .

وشرع الناس يتوافدون على بيت الله ، يؤدون له مكتوبة

الصبح ، والفتى يقاسى من حاله محنة عسراء ، فما شهد أخاه يبارح المسجد حتى انسل صاعداً إلى السطح وهو يتلفت ، وما كان أشد دهشته حينما ألفى السطح خالياً ليس فيه من إنسىّ . فطوف ببصره غير مصدق ، وجعل يذرع السطح متأملا كل رقعة فيه ، حتى كأنه اختبل ، وانتهى به التطواف إلى حافة السطح خلف المسجد ، وأفلتت منه نظرة إلى الأرض ، فندت من حلقه صيحة مصعوق . . . وسرعان ما ألفى نفسه ينحدر على الجدار ، حتى بلغ مسقط «هنية» فإذا هى ملقاة تئن فى خفوت ، فأقبل عليها فى هلع ولهف ، وهو يسائلها :

ما بها ؟

فعالجت أن تجيب فى عناء :

لقد تحطمت يا « سرحان » . . . تحطمت . . .

وكانت تعض على شفتيها فى عنف ، لتكتم التأوه ، فاحتضنها الفتى يواسيها ، ولا يدرى ماذا هو قائل ؟ وماذا هو فاعل ؟ فسمعها تهمهم :

أوجاعى لا تطاق . . . إنى أموت !

وما وجد الفتى بداً من أن يحتملها فى رعاية واحتراس ،

والأسى يمزق نياط قلبه ، ورأسه تتضارب فيه المخاوف .

وانتحى بها بيت « أم عبد الجليل » وكانت مستودع سره ، عطوفاً عليه ، وفية له ، فأفضى إليها ببعض الأمر ، وناط بها تدبير المخرج .

فنهضت المرأة ناشطة إلى دار الشيخ تنهى إليه الخبر . وما أسرع أن نقلت « هنية » إلى دار زوجها تحوطها العناية والتعهد .

وأشاعت « أم عبد الجليل » أن « هنية » قدمت عليها قبيل الفجر لتخبز ، وصعدت إلى سطح الدار ، تجلب منه الوقود ، فزلت بها القدم ، وسقطت تلك السقطة الحاطمة .

ومضى يومان ، تكابد فيهما « هنية » آلاماً مبرحة ، والفتى عائد بتلك البقعة الخالية وراء الدار ، حيث ارتشف أول قطرة من غرامه المحرم . فكانت تنوبه ثورات تحتدّ به ، حتى ينحى على شعره تقطيعاً ، وعلى جبهته لكماً وجيعاً ، وهو يغمغم مختنق الصوت :

أنا الذى يجب أن يعذب . . . أنا الذى يجب أن يموت !

وقضت «هنية» نحبها فى الغداة ، وشيعت جنازتها إلى

جبانة القرية على النحو المألوف فى عرف الريف .

وتجلد الفتى أول الأمر ، يكبت مشاعره فى جهد ، فقام بما وكل إليه من شأن المأتم ، ولكنه كان يؤدى عمله فى تبلد ووجوم . وكثيراً ما تزدحم عليه التصورات والأخيلة ، فيحس كأنما هو يهوى من حالق ، أو كأنما هو تنخسف به الأرض .

وبعد أيام عراه انقلاب ، فلم يعد يطق اللبث فى مكان ، وإذا هو يهيم على وجهه فى المطارح القصيّة ، كأنه ثور انفك من قيوده ، فهاج وماج .

وأسلمه ذلك بعد حين إلى انهيار وخمول ، فلزم الدار أكبر وقته ، وهو يحاول جهد إمكانه أن يتجنب مواجهة أخيه ، فإذا التقيا على رغم منه وكره ، أحس كأنما أخوه يوشك أن يسأله :

كيف سولت له نفسه أن يفعل ما فعل ؟

وعلى مرّ الأيام أحس الفتى بأن سره ينمو فى صدره ، ويكاد ينطق بجريرته الشوهى ، وأن العيون من حوله تقول :

خذوه !

وكان إذا برح الدار ، تنقّل فى أرجاء القرية ، متنكباً

عن المسجد لا يقربه ، فجاءه أخوه ذات يوم يسأله :

فيم تَخَلفك عن بيت الله ؟

فلم يجد الفتى مندوحة من الذهاب إليه ، ومعاودة القيام بعمله فيه . . . وفيما كان يروح ويجيء ، تتمثل له مشاهد ليلته التى قضاها مع « هنية » فيه ، فينقبض صدره ، وتغيم عيناه ، وتنتهشه الأفكار السود .

ولما جن به الليل فى المسجد ، أحس الخوف يدبّ فى أوصاله ، ويتسرب فى كيانه ، ولكأن أشباحاً مفزعة تدفّ حواليه ، وهمساً راعباً يطن فى أذنيه .

وما كاد المسجد يخلو من قصاده ، حتى عمد إلى الباب ليوصده ، وبينما هو فى طريقه إليه استشعر خفق أقدام فوق سقف المسجد ، فأرهف السمع ، ولقلبه وجيب دَءوب . فألفى نفسه يهرع إلى السطح صاعداً ، وتراءى له على الحافة طيف يتردد ، فأقبل نحوه ، فانهوى الطيف دفعة ، ورن فى أذن الفتى وقع سقطته ، وتتابعت إليه أناته يتوجع . فانحدر الفتى على الجدار ليبلغ مسقط الطيف ، فإذا هو فى البقعة التى احتوت « هنية » منذ أيام جسداً ملقى يئن فى خفوت .

وحوّم الفتى بعينيه على حذر وتخوف يبحث عن الطيف ، فلم يجد له من أثر ، وما إن خطا خطوة حتى صادف أخاه الشيخ قادماً من جانب المسجد ، فبوغت بمرآه ، وما عتم الشيخ أن قال فى استنكار :

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ! . . . أنت هنا ؟ . . . فيم بقاؤك فى الظلام ؟ !

فوجم الفتى واقفاً يدور رأسه ، وتزيغ عيناه ، ويبدو ارتباكه واضطرابه . . . واستأنف الأخ قائلا :

ماذا بك ؟ ما الذى تخفيه عنى ؟ . . . تكلم !

فصاح الفتى فى غير وعى :

لا تسألنى . . . لست مجيبك . . . هذا قضاء الله .

فتعجب الأخ من قوله ، وتدانى منه يتفرس فيه ، فرده الفتى عنه يصيح مخنوق الصوت :

لا تقربنى . . . لا تقربنى !

وانطلق يهيم على وجهه كمن أصابته جنّة . . .

وكان هذا آخر عهده بأخيه ، وبقرية أهليه .

وتقاذفته البلاد على تنائى أطرافها ، يحيا حياة الطريد

الشريد ، لا أنيس له ولا سمير إلا تلك الصفارة الحنون .

وها هو ذا يستقر به المطاف فى هذه المدينة ، حيث تراه ! . . . »

* * *

ونكس زامر الحىّ رأسه ، وقد نال منه الجهد ، فقلت وقد شجانى حديثه :

لماذا لا يستغفر الخاطئ ربه ، مستأنفاً تقواه ؟ إلى متى يتخلف عن بيت الله ؟

فرفع الرجل وجهه إلىّ ، وقد برقت الدموع فى محجريه ، وهمهم :

أترى يغفر الله له ما قارف من إثم ؟ أترى ينفسح لمثله المسجد الطهور ؟

وما هى إلا أن اجتذب صفارته من صدره ، وانكب عليها يوقع لحناً رقيقاً يتفطر من ضراعة وندامة وحنين !

مظاهرة ...

اتخذ « حسنين أفندى » سبيله إلى داره ، ضائق الصدر ، على جبينه قطوب ، تسرع به قدماه ، مديد القامة ، يهتز عوده فى السير اهتزازة النخلة حين تعتورها الرياح .

لقد كان فى مشربه المختار ، يقضى على مألوف عادته فترة الأصيل ، بيد أنه بادر إلى ترك المشرب بعد أن بنى عزمه على ألا يعود إليه ، حتى تستقر الحال ، ويستتب الأمان .

خير له أن يعتكف فى داره ، متنكباً عن دواعى القلق ، وأسباب الاضطراب ، ناعماً بالسكينة والطمأنينة فى مستقره الأمين ، آنساً بذلك السرب الألوف من قططه ، مسترخياً على كرسيه الوثير ، يستروح نسمات العشىّ من تلك النافذة التى تريه وجه الطريق .

بُعداً للمشرب فى ذلك العهد العصيب . . . فإنه لم يعد يتيح لقصّاده ما كان يتيح لهم من متعة وبهجة وإيناس .

كان الرجل فى مواضى أيامه يتوخى المشرب فى الأصائل ،

لكى تطالع عيناه أفواج الناس ومواكب النور ، ولكى يتلقط سمعه ما عسى أن يكون من أخبار وأحداث ، ولكى يطارح جلساءه أطايب النكات والأفاكيه . . . وهو فى الفينة بعد الفينة يشنف أذنيه بالاستماع إلى ما ينقله المذياع من الأغانى والأناشيد ، فإذا أصاب من ذلك كله ما أصاب ، قفل إلى الدار ليستقبل فراشه رضىّ النفس هادئ الأعصاب .

وماذا يراد منه أن يفعل وقد ذرّف على الستين من عمره ، وبليت قواه فيما مارس من وظائف حكومية أسلمته إلى التقاعد ؟

إنه فى مرحلته الجديدة من حياته ليعد الساعة التى يقضيها فى المشرب هى الساعة الخصيبة فى يومه الجديب .

أما الآن فلكأن الزمان قد نفس عليه هذه الساعة الطيبة ، وأبى إلا أن يحيلها ساعة فزع واهتياج .

ماذا بقى فى المشرب يحدوه ويستهويه ، بعد أن صار أشبه ما يكون بحومة قتال تدوّى فيها جلبة المناقشة والحوار ؟

الناس اليوم فى المشرب زرافات يتنازعون الصحف ، ويتبارون فى قراءتها والتعليق على ما فيها ، عالية أصواتهم ، ثائرة نفوسهم ، لا يفترون ولا يملون .

وليس عجباً أن يجرى ذلك فى المشرب ، والشعب كله يرتقب أن تتمخض الأيام الحاضرة عن موقف حاسم فيه تقرير لمصير البلاد .

لم يعد « حسنين افندى » يجد فى المشرب من يناقله الحديث فى أخبار الناس وأسرار البيوت ، يتخذ منها مثاراً للوم والاستنكار ، وسبيلا إلى التلهية والسلوى .

وما كان لأحلاس المشرب أن يشغلوا أنفسهم بما كانوا يشغلونها به من قبل ، والقوم فى طول البلاد وعرضها مصروفون إلى التأهب للكفاح ، واستقبال ما يطرأ من جسام الأحداث .

وهذا المذياع المهذار الذى كان طروباً ضحوكاً لا يسأم ترداد المهازل والمعابثات ، ما باله أصبح وقوراً محتشما كله جدّ وتزمت ، غناؤه تحميس للنفوس ، وأحاديثه تذكير بالواجب الوطنى ، وأنباؤه تمهيد للموقف الحاسم العتيد .

ما للدنيا من حول « حسنين أفندى » قد تبدلت ، فإذا هى عنف وقسوة ، وإذا هى دعوة إلى مقاومة ونضال ، وإذا هى فى مجمل أمرها ثورة أىّ ثورة ؟ . . .

ما شأن الرجل بهذا كله ، وهو فى شيخوخته يطلب الراحة

بعد التعب ، ويريد أن يستمرئ ما بقى من أيامه على ظهر الأرض سالماً معافى ؟

لقد أدى ما عليه للوطن ، فخدم الحكومة سنين طوالا ، طاهر الكف ، موفور الأمانة ، وخرج منها مشكور السعى ، حميد الأثر .

إنه ليذكر عهوده الغابرة ، فلا يفتأ يشيد بما كان يشيع فيها من أمن ويمن ورفاهية ، حيث لا موجب لثورة ، ولا دعوة إلى كفاح . . .

بلغ الرجل باب داره ، ورأسه تتناوح فيه الهواجس والأفكار ، فدخل عجلان يغلق الباب خلفه ، وقد واثق نفسه على ألا يغادر الدار حتى تنجلى العاصفة ، وتنزاح الغمة ، ويراجع الحياة سلام .

وكرت أيام لزم فيها الرجل مكمنه ، يصبح حيث يمسى ، ويمسى حيث يصبح ، لايزور ولا يزار ، ولا يعايشه من الناس إلا خادمه الصبى الذى يضطلع بمرافق الدار ويقوم على شؤون المطهى ، وليس له من أنيس إلا ذلك السرب الألوف من القطط ، يقضى معه أطيب الأوقات .

وفى إحدى الأماسىّ كان « حسنين أفندى » كشأنه متهالكاً على مقعده حيال النافذة ، يستنشى نسيم الليل ، ويرعى نجوم السماء ، وهو يستغفر الله من خطاياه ، وفى حجره قطه المختار « مشمش » يسترسل فى قرقرة كأنه يرتل بها صلوات وتسابيح !

وبينما كان الرجل آنساً بقطه ، يربت ظهره ، إذا هو على حين بغتة يكف عنه يده ، ويحدق إليه ، وما هى إلا أن همهم :

لقد أطلت المكوث معى ، حتى خدرت ركبتاى . . . أما آن لك أن تتزحزح ؟

وما لبث أن وكز القط فى غير عنف ، وهو يواصل قوله :

استيقظ يا صاح . . . أملكت ركبتىّ فأصبحتا لك وحدك ؟ حقاً لقد أغرتك طيبة نفسى فجاوزت حدك .

وسرعان ما وكز القط مرات فى شدة وحدّة ، فرفع إليه القط رأسه يتبين : ما الخبر ؟ ولم يلبث أن تنحّى عن حجر سيده ، واثباً إلى أديم الأرض ، فى غير عناد ولا إنكار .

وجعل القط يتمطى ويقوس ظهره ، متعالياً به ، ثم قصد إلى إحدى النمارق ، فتكوّر عليها كأنه حلقة .

إن « مشمش » ليعجب من شأن سيده فى هذه الآونة . . . ثمة شىء غير مألوف ، ثمة باعث على هذه الروح التى فقد بها « مشمش » ما كان يخصه به سيده من عطف .

لا مرية فى أن الرجل مغلوب على أعصابه ، ليس يملك لنفسه من قرار .

على أن « مشمش » لم يقم لذلك الانقلاب كبير وزن ، ولم يعره مزيد اهتمام .

ما برح « مشمش » يتبوأ مكانته فى الدار ، فهو عميد القطط غير منازع ، وهو موفور الحظ من رخاء وتنعيم .

واستأنف القط قرقرته عن كثب من سيده ناعم البال .

فألقى عليه الرجل نظرة حاسد ، وحدث نفسه يقول :

حقاً ما أسعد دنياك يا « مشمش » . أنت لا تحس ضيقاً ولا تلاقى من كرب . . . أنت تستمرىء حياتك بارئة من كل شوب . . . أكل ونوم . . . وهذه القرقرة التى تبعثها كأنما هى صوت معدتك الطحون ! . . . لو قضيت سجين الدار عاماً تلو عام لما فاتك من الدنيا شىء ، لأنك حيوان أعجم لا تعقل ولا تفهم . . . أفحسبت الناس يماثلونك فى غباوتك وخمولك ،

يرضون أن تحتويهم الحوائط والجدران ؟ !

ونهض « حسنين أفندى » متبرماً متسخطاً يرمى القط بشواظ من عينه ، وملء نفسه زراية عليه ، واحتقار له . ولكن القط لم يعبأ بما يقول سيده ، وانخرط فى قرقرته المنسجمة ، وهو مكور يتداخل بعضه فى بعض ، حتى لا تدرى أين ذيله وأين رأسه ؟

وأدبر الرجل عن الحجرة يجتاب الدار ، وقد استبدت به الحيرة ، وعزّ عليه أن يستقر .

فى مثل هذه الساعة من أماسيه الماضية ، كان المشرب العامر الوضّاء يضمه إلى رفاقه ، حيث يثرثر ويقهقه ، ويسمع المعجب والمطرب !

أما هنا ، فى كسر البيت ، فإنه لا يجد من يتحدث إليه ، إلا هذا القط الخرف ، يتابع قرقرته المملولة التى تحاكى حشرجة الاحتضار !

وأحس الرجل بأن ريقه يغيض ، وأن حلقه يكاد يتشقق ، فرغب فى شربة ماء ، وذكر أنه طلب إلى خادمه منذ العصر أن يملأ القلل ، وأن يضعها على طنف النافذة البحرية ، فحث خطاه مؤملا أن يبل صداه بماء مثلوج .

ولما بلغ حافة النافذة ومدّ إلى القلل يده ، ألفاها ناضبة ليس فى واحدة منها قطرة ، فما عتم أن ثارت ثائرته ، وانبعث صائحاً :

يا « عبد الفتاح » . . . يا ولد يا « عبد الفتاح » . . .

وعدل عن النافذة ، متجهاً صوب المطهى ، وهو يدعو غلامه مرة بعد مرة ، وصوته تتجاوب به أرجاء الدار ، دون أن يظفر بمجيب .

وازداد الرجل من حنق ، وانطلق مهدداً :

سيرى . . . سيرى . . .

وفيما هو يذرع الحجرات ذهوباً وجيئة ، فتح الباب ، وبدا منه الغلام مقبلا يقول فى اهتياج :

سيدى . . . سيدى . . . خبر مهم . . .

فأشرع إليه الرجل نظرات احتقار ، وهو يحاول ضبط أعصابه ، وقال له :

أى خبر يا ولد ؟

— خبر إلغاء المعاهدة . . .

فأخذ « حسنين أفندى » ، وجعل يردد الجملة على لسانه :

المعاهدة ؟ . . . إلغاء المعاهدة ؟

فأعلى الصبى صوته بقوله :

لقد حدث هذا والله العظيم ! . . . بأذنى سمعته . . . انتهى الأمر . . . الحكومة ألغت المعاهدة الليلة !

وتوسط الصبى الردهة ، وصرخ قائلا :

فليسقط الطغاة . . . لا معاهدة بعد اليوم !

وشعر رب الدار بأن غلامه قد جاوز الأدب اللائق فى حضرة سيده ، وأنه قد رفع صوته متشدقاً أمامه ، مطلقاً للسانه العنان . . . فأراد الرجل أن ينهره ويزجره ، ولكنه ما لبث أن أمسك ، يحدوه باعث خفى لا يعرف له مأتى . . .

وعبرت فمه ابتسامة استخفاف وهو يقول رزين النبرة ، وقور اللهجة :

وهل تعلم معنى كلمة طغاة يا بطل ؟

فقال الصبى جريئاً :

نعم ، أعلم . . . فليسقط الطغاة . . . فليسقط المستبدون . . . الجلاء ، الجلاء ! . . . الوحدة ، الوحدة !

وما كاد ينتهى الصبىّ من قولته ، حتى ترامت إلى الدار

صيحات الشراذم من غلمان الطريق ، يرددون :

الجلاء ، الجلاء ! . . . الوحدة ، الوحدة !

وبهتَ الرجل ، وتمشت الرهبة فى أوصاله ، ومثل يستمع للهتاف المتوالى ، وهو يتزايل على مدّ الطريق .

فأما الغلام فإنه ما كاد يسمع ذلك الهتاف ، حتى راح يتواثب ويصفق ، وينظر إلى سيده قائلا :

صدّقتنى يا سيدى ؟ أتسمع يا سيدى ؟

وإذْ هدأت الجلبة تدانى الغلام من « حسنين أفندى » يقول :

أتريد عشاءك يا سيدى ؟

فأجاب الرجل مهزول الصوت ، يحاول عبثاً أن يلفظ كلماته فى فخامة وتنفخ :

لا أريده الآن . . .

وهمّ الرجل أن يأخذ على غلامه تقصيره فى ملء القلل ، ولكنه لم يزد على أن يشير إليه بيده أن ينصرف .

على أن الصبى لم يبرح مكانه ، بل شرع يقول لسيده ، وهو يهتز :

ستتألف غداً مظاهرة كبيرة . . .

وعلا الشحوب وجه الرجل ، وهو يهمهم :

مظاهرة ! مظاهرة !

– نعم ، مظاهرة كبيرة . . . تجوس خلال المدينة من أقصاها إلى أقصاها . . . مظاهرة تضم الطوائف كلها ، لكل طائفة رايتها . . .

وعمد الرجل إلى الباب ، يحكم إغلاقه بالمزلاج والمفتاح معاً . ولم يزُلْ عن الباب حتى استوثق من أمره كل الاستيثاق ، ورجع يجرّ خطواته إلى حجرته ، ملقياً بنفسه على المتكإ ، مهمهماً :

مظاهرة . . . لا حول ولا قوة إلا بالله ! . . . ألا يتركون الناس فى طمأنينة وراحة ؟

وعمد ذقنه بيده ، وقد اعتلجت أفكاره تدير رأسه ، وتطوف به كل مطاف .

وبكرة أصبح الرجل يتفقد غلامه ، فلم يجد له فى الدار من أثر ، وعجب منه كيف استطاع الخروج ، والباب مغلق ، والمفتاح فى حرز حريز !

وعجل الرجل إلى المطهى ، يفتش ويتعرف ، فاستبان له أن كوة عالية قد انكسر زجاجها ، وفطن إلى أن الغلام قد اتخذ منها إلى الطريق مهرباً . . .

ووقف الرجل يضرب كفاً بكف ، وهو يهدر ويبصق ، ويصبّ لعناته على ذلك الغلام المتمرد الشغوب ، بل على ذلك الزمن النكيد الذى صار فيه الغوغاء ذوى رأى وتدبير ، يقحمون أنفسهم فى جسام الشئون والمعضلات .

وبقى الرجل وقتاً يزمجر ، فصكت سمعه صيحة عالية أفزعته ، ودنا من إحدى النوافذ على ترقب ومحاذرة ، فانجلى له أن الصوت ينبعث من المذياع فى بيت الجار . . .

وأرهف الرجل سمعه ، يتطلع ، فتناهت إليه عبارات حماسية تتردد فيها كلمات : « توحيد الصفوف » و « الكفاح حتى يتحقق الجلاء » و « بذل النفوس فى سبيل الوطن » . . .

وما أسرع أن تواردت على الطريق زمر من الناس يهتفون ويتصايحون ، فعلم الرجل على غير شك أن المدينة فى هذا اليوم يموج فيها تيار كهربى فوار يشبه اضطراب الجو قبيل العاصفة !

ولم يتمالك الرجل أن يتوخى نوافذ حجراته ، فيحكم إقفالها جميعاً .

واستقر به المقام فى حجرته يستريح ، فسمع طرقاً على الباب ، فتصامم عنه ، ولكن الطارق لم يمل ولم ييأس ، فنهض الرجل إلى الباب على كره ، وسأل :

من ؟

فكان الجواب :

اللبّان .

ففتح الرجل أغلاق الباب فى احتراس ، واستقبل « المعلم سند » وهو يناوله وعاء اللبن ، ويحييه بقوله :

صباح الخير يا « حسنين افندى » .

— صباح الخير يا معلم .

وهم أن يرد الباب ، ولكنه وجد نفسه مدفوعاً إلى مجاذبة اللبّان بعض الحديث ، وإذا هو يقول :

كيف الأحوال يا معلم ؟

— الأحوال طيبة . . . البلد كلها على قدم وساق .

— ولماذا ؟

— ألم تسمع نبأ المظاهرة ؟

— سمعت .

ـ ستشترك فيها بلا ريب ، فإنّ لذوى المعاش من الموظفين مكاناً خاصاً فيها . . . ولهم راية خاصة بهم . . .

ـ راية ؟

ـ نعم ، راية . . . ألا علم لك بهذا ؟

ـ أعلم . . . أعلم . . .

ـ أما راية اللبانين فهى راية عظيمة ، طولها خمسة أمتار . . .

ـ وللبانين راية أيضاً ؟

ـ أنكون أقل منكم وطنية يا « حسنين أفندى » ؟ . . . كلنا مصريون !

ـ عفواً . . . لست أقصد . . .

ـ لقد اختارنى اللبانون لأكون فى مقدمة الفوج : أحمل الراية ، وأطلق الهتاف . . .

ـ أى هتاف ؟

فعلا الرجل بصدره ، وأرسل فى حلقه صيحة مجلجلة ، يقول :

الجلاء . . . الجلاء . . . لا احتلال بعد اليوم !

فحدق « حسنين أفندى » إلى « المعلم سند » هنيهة ، ثم

قال له وهو يبتسم فى تخابث :

أنت تعرف معنى الجلاء حتما . . .

— وكيف لا ؟ أجاهل أنا ؟

— وماذا يعود عليك من الجلاء يا معلم ؟

— نعيش فى هناء ورخاء . . . الخبز يرخص ، والملابس تتيسر ، والخير يعم . . .

واقترب « المعلم سند » من محدثه ، آخذاً بيده ، يشد عليها ويقول :

صلّ على النبى . . . أزمة وتنفرج . . . الله معنا !

ودخل « حسنين أفندى » مسكنه ، مغلقاً بابه عليه ، ومضى يسوق رجليه ، وهو يجمجم :

لذوى المعاش مكان خاص فى المظاهرة . . . ولباعة اللبن راية وهتاف !

واتجه الرجل إلى المطهى ، وفى أذنيه أصداء حديثه مع بائع اللبن ، وأقبل يعدّ الفطور لنفسه وللقطط ، وكان قد تعود أن تحيط به فى مثل هذا الوقت ، تستنجزه الطعام فى مواء وهرير ، فأدهشه أنه لا يرى لقط ظلا فى هذا الصباح ، فدار بعينيه فى

الحجرات ، يدعوها بلهجته التى ألف أن يدعوها بها ، ومضى يناديها بأسمائها :

« مشمش » . . . « بلبل » . . . « فواكه » . . . أين أنت أيتها القطط المتكاسلة ؟ . . . هذا طعامك قد أعدّ .

واشتد العجب بالرجل حين انتظر طويلا ، دون أن يستجيب له من القطط أحد . . . فرجع إلى المطهى ، وحانت منه نظرة إلى الكوة العالية التى انكسر زجاجها ، وانطلق الغلام منها ، فغمغم يقول :

أترى القطط قد هربت أيضاً ليكون لها نصيب المشاركة فى هذا اليوم المشهود ؟ إن هذا السرب من القطط لم يبرح البيت منذ عهد عهيد ، فما باله فى هذا اليوم يلتمس له مخرجاً إلى الطريق ؟

وبلغت سمع الرجل أنغام موسيقية يبعث بها مذياع الجار ، وقد رَاسلها نشيد حماسىّ فوار . . . فلبث الرجل يصغى وقد راقه اللحن ، وما هى إلا أن جاشت نفسه ، واعتلجت فيها مشاعر . . .

وألفى أصابعه تنقر حافة المائدة نقرات يتابع بها وقع الأنغام ،

ثم ما عتم أن راح يخطو خطوات راتبة كأنها خطوات جندى . . . وانتبه لما يفعل ، فأدركه خجل . . . أطفلٌ هو تملك لبه أناشيد الصبيان ؟

وشرع الرجل يطعم ، وأنغام المذياع تتوارد على أذنيه ، حاملة إليه ألوان الأهازيج ، فكان يرعيها سمعه ، فتسرى فى أوصاله باعثة فيها الهزّة والانتفاض .

وانكب على طعامه يلتهمه التهاماً ، وخفتَ صوت المذياع شيئاً فشيئاً ، حتى انقطع ، فحمل الرجل قدح القهوة إلى حجرته ، يترشّفه فيها على مهل ، وقد حاصرته ألوان من الخواطر والأفكار تسبى مشاعره . . .

وفى الفينة بعد الفينة تتهادى إلى سمعه أصداء تصايح وهتاف ، فكان يشرئب إلى النافذة ، مستطلعاً ما عسى أن يكون ، ثم يتبوأ مقعده يترشف ما بقى من قهوته .

وعلى حين بغتة سمع صوتاً جهيراً ينادى :

فليسقط الغاصبون !

فانبعثت أصوات أخرى تردد النداء فى حماسة واحتداد .

الغاصبون . . . الغاصبون !

وحملته الذكرى إلى عصر شبابه ، حين كان موظفاً طاوَع حركة الإضراب العام إبان الثورة الوطنية . . . إنه لم ينس حتى اليوم وقفة المذلة والمهانة أمام المفتش الإنجليزى وهو شامخ الأنف ، منتفخ الشدقين ، يبالغ فى تعنيفه ، ويستهزئ بوطنيته ، وينتقم منه ما وسعه سلطانه عليه أن ينتقم . . .

إن « حسنين أفندى » ليشعر الآن بأن هذه الصورة القديمة كأن يداً تخرجها من زوايا النسيان ، وتجلو عنها غبار الزمان !

الغاصبون . . . فليسقط الغاصبون !

وضاق الرجل بمجلسه ، فقام يتسكع فى الحجرات ، وعرج على المطهى ، فألفى طعام قططه لم يمس . . . يا عجباً لهذه القطط ! . . . كيف استخفتْ فلم تعد لكى تتناول فطورها ؟ وكيف رضى أن يتابعها فى هذا الصنيع قطه المختار « مشمش » ، ذلك القط الهرم الذى يلازمه ويصافيه ؟ أو يجحد « مشمش » فضل سيده عليه ، ويتركه وحيداً فى هذا اليوم الصاخب العصيب ؟

وجنح الرجل إلى النافذة يطل ، فإذا البيوت تنفض أهلها من شبان وشيب ، وإذا الناس يجتمع بعضهم إلى بعض ، وهم

يتسايرون فى حمية ، ويتنافلون الأحاديث فى جدّ ، متجهين جميعاً صوب الطريق العام . . .

ومن ثم أخذت الأصوات تترسل عل سمع الرجل متواصلة متميزة ، تحمل ألوان الهتافات والنداءات ، فترك الرجل نافذته يغدو فى الحجرة ويروح ، وفى نفسه حيرة ، وفى صدره حرج .

ها هو ذا قد تخلى عنه غلامه ، وتخلت عنه قطته ، وبقى وحده فى عقر داره يخيم عليه الركود والخمود ، على حين أن المدينة كلها على قدم وساق ، وأن الناس أجمعين متظاهرون يحتويهم الطريق !

وأعدّ الرجل لنفسه قدحاً آخر من القهوة ، وبلغ به الاهتياج كل مبلغ ، فكان يتنقل فى أرجاء مسكنه ، والقدح فى يده ، تارة هو فى المطهى تصافح سمعه الأناشيد الحماسية ، وطوراً هو مطل من النافذة يشهد الناس متزاحمين فى ضوضاء . . .

ولمحت عينه فوجاً من فتيات صغيرات ، تكسوهن أردية بيض ، وفى أيديهن رايات خضر ، وعلى وجوههن تهلل وإشراق كأنهن قد خرجن فى يوم عيد ! . . . فجعل الرجل يقفوهن بنظراته ، وقد أخذن بمجامع قلبه . . . يا لله ! . . . حتى

هؤلاء الصغيرات لهن فى مظاهرة اليوم نصيب !

وتزايلت رويداً حركة الطريق ، وقلت السابلة ، وتضاءل الصخب ، وأخيراً أقفرت المسالك ، وأصبحت الدور خاوية قد أطبق عليها صمت . . .

لقد نزح الأهلون إلى الميادين ، وإن « حسنين أفندى » فى وحدته وسكونه ليسمع على البعد حسيس الضجة وأصداء التنادى والهتاف !

وألفى الرجل قدميه تدفعانه إلى الباب ، فتسلل خارجاً منه ، ووقف على رأس الشارع حيران يتلفت . . .

واستبانت له بعض أصوات ، فجعل يرهف لها السمع ، وما لبث أن انطلق صوب الطريق العام . . .

وكان كلما مضى خطوات تجلى له الضجيج ، كأنما يشده نحوه ، ويهديه إليه .

وما هى إلا أن أشرف على مزدحم الناس ، فانتبذ من الطوار مكاناً يتطلع منه ، وبدت له أفواج المتظاهرين كأنها الموج يلتطم ، فانعقدت بها عينه يرقبها فى حمية واهتياج . . .

إن هذه الخلائق فى شغل بما هى فيه من الأمر العظيم . . .

فلقد جاز به فى غمار الزحام أناس ممن يعرف ، فلم يأبهوا له ، وتابعوا مسيرهم فى الموكب ، لا يصرفهم عن أمرهم شىء !

ولاح له بين الزحام بائع اللبن « المعلم سند » ماثلا على أعناق رفاقه من الباعة وهم يحملون أوعيتهم الكبيرة بين أيديهم وقد اتخذوها صنجاً يضربونه . . . وهو يهتف فيهم بأعلى صوته :

فليسقط الغاصبون !

والرفاق وراءه يرددون الهتاف ، والجموع من حولهم يصفقون معجبين متهللين . . .

ورجف قلب « حسنين أفندى » وبرقت عينه ، وأحس قدمه تنساب به إلى الأمام ، فسار لا يدرى أية غاية يقصد ؟ حسبه أنه مع الناس يسير !

وما لبث أن دارت به الزحمة ، واحتوته ألفافها المتشابكة ، وضغطته الجماهير تزج به ، والنداءات تصك سمعه ، فاستشعر الدم فى عروقه يتوقد ، وأعانته قامته المبسوطة على أن يطوف ببصره يمنة ويسرة ، فراعه ذلك البنيان المرصوص الذى يمضى قدما . لم يعد للطريق وجود . . .

فهذا الذى يراه « حسنين أفندى » ليس إلا بحراً متدفع

الموج ، قوىّ الهدير !

لم يعد للطريق وجود . . .

فهذا الذى يزخر به المكان ويعج ليس إلا قلب أمة يخفق ، قلباً عزيزاً طعنته الأحداث ، فتسايل منه الدم قانياً يشعل المشاعر ويوقظ الأرواح . . .

وما عتم الرجل أن انفجر صائحاً :

لا استعمار بعد اليوم . . . فليسقط الطغاة !

فإذا الأفواج المطيفة به تردد صيحته ، وإذا هو يواصل النداء أجهر صوتاً وأشد عنفاً ، فلا تمل الجموع ترديد ندائه فى قوة ونشاط . . .

وراعه أمره . . . أحقاً هو صاحب ذلك الصوت المدوّى؟ أحقاً هو باعث تلك النداءات ونافث ذلك الحماس ؟

وزهيت نفسه بهذا الصنيع ، وندّت منه نظرة إلى الراية فى يد حاملها ، فألفاها تترنح وتوشك أن تتهاوى ، فما أسرع أن امتدت يده ينتزع ساريتها ويسمو بها ، فخفقت الراية تظل الرءوس ، فتعالت الصيحات « لحسنين أفندى » تحييه وتشيد به فى إكبار .

وما هى إلا لحظات حتى احتملته الناس على الأعناق ،

فشمخ بالراية يجأر هاتفاً برفعة الوطن وسقوط الغاصبين .

وتقدمت الجموع فى سيرها حتى وردت ميدان الثورة ، وهنالك تحلق كل جمع حول خطيب يفيض فى تكريم البطولة وتمجيد الاستشهاد .

وما كاد « حسنين أفندى » يتوسط الميدان فى جمعه ، ويسمع الخطباء بين الجموع متنافسين ، حتى ألفى نفسه يرتجل الكلام ارتجالا ، ويرسله إرسالا ، والسامعون له يوالونه بتصفيق الإعجاب .

وبغتة اختنق الكلام فى حلق الرجل ، وما لبث أن ترنح جسمه يريد أن ينقض ، وريع الناس لذلك ، فسارعوا إلى الرجل ينزلونه ويتفقدون أمره ، ولا يدخرون وسعاً فى إسعافه وإنعاشه .

وفى ضحوة غد كانت الوفود يزحم بعضها بعضاً قبالة الدار التى يقيم فيها « حسنين أفندى » وبعد قليل سارت هذه الوفود يتقدمها نعش الرجل مسجى بالراية الخضراء ، كأنما هو ما برح فى مظاهرة أمس : يحمل الراية ، ويقود الجمع ، ويخطب فى تكريم البطولة ، وتمجيد الاستشهاد !

إلى السارق ...

فى قرية من قرى الريف البعيد ، على حجر عريض ، بالقرب من أحد المخازن المهجورة ، جلس الفتى « عبد السميع » يحد نظره إلى الطريق الزراعى الممهود ، ذلك الطريق الذى يخترق أراضى « حسن أغا » وما وراءها من المزارع ، تصطف على حافتيه أشجار فارعة معتدلة ، كأنها أحراس أيقاظ تتولى حفارة هذه البقعة المترامية الأطراف .

وكان الفتى يبعث فيما أمامه نظرات حائرة قلقة ، تجوز فى تشوّف وارتقاب بمن يعبرون السبيل . فهنالك صبية يتواثبون خلف الدواب فى مرح واستخفاف . وأولئك رجال يلقون على أكتافهم الفئوس ، فى وجوههم سيماء الركون إلى محتوم المصاير ومكتوب المقادير . وهؤلاء نسوة تخب فى أكسية سابغة قاتمة ، وقد انبسطت قاماتهن ، واشرأبت هاماتهن ، ومضين فى لباقة ودربة ، يحملن على رءوسهن قفاف الزاد .

وتطلق محيا الفتى بغتة ، وافتر ثغره عن ابتسامة بدت بها

أسنانه مرصصة لامعة ، فنهض عن الحجر ، وافى العود ، عريض الأكتاف ، وسيم الملامح ، ينتفش فى صدره العارى شعر غزير ، وينحسر جلبابه عن ساقين ضخمتين كأنهما قدّتا من جذوع النخيل !

وما هى إلا أن صاح الفتى منادياً فى تكرار :

« صابحة » . . . يا « صابحة » . . . يا بنت يا « صابحة » .

وكانت « صابحة » قد أخذت بمقود حمار على جانبيه غرارتان فارغتان . . . فما إن سمعت النداء حتى استدارت نحو مبعثه ، فألفت « عبد السميع » مهرولا إليها ، فاستشعرت نفسها ابتهاجاً كاد يتجلى على قسمات وجهها ، فأمالت خمارها الأسود على فمها ، تستر ابتسامها . ولم تلبث أن داعبت ظهر الحمار بضربات من عصاها ، فهم الحيوان مغزاها ، فانفتل يقمص عائداً إلى الدار .

وبلغ الفتى مكان الفتاة وهى تعانى أن تكتم ما بها من اهتياج ، ولا تجد من وسيلة لذلك إلا أن تشد خمارها على جانب وجهها طوراً بعد طور ، ومضى الفتى بفتاته إلى المخزن المهجور ، ووقفا ببابه فى صمت وقلق .

وما هى إلا أن أطرق « عبد السميع » ، وطال به الإطراق ، وهو يحدّق فى أديم الأرض ، ثم همهم يقول :

لم تحضرى للعمل منذ أيام يا « صابحة » !

فتراخت يد الفتاة عن خمارها ، تنفض الغبار عن جلبابها ، فانبلج محياها تتنضر فيه زهرة الشباب . ورفع الفتى إليها بصره يتملّى مفاتنها ، فأسرعت الفتاة إلى خمارها تسبله ، وفى عينيها حيرة وتحرّج .

أنس « عبد السميع » إلى « صابحة » منذ وصل بينهما العمل فى دار « حسن أغا » إذ كان الخادم الخاص لرب الدار ، يضع فيه ثقته ، ويستودعه سره ، فهو الأمين على متاعه وماله ، وهو الحريص على أداء واجبه فى نزاهة واستقامة وإخلاص .

وكانت « صابحة » تتردد على دار « حسن أغا » كلما استدعت بعض الأعمال استخدام صبايا القرية حيناً بعد حين .

ونبتت بين الفتى والفتاة مودة وألفة ، فشاع فى القرية ما بينهما ، حتى إنهما كانا إذا تراءيا معا تهامس الناس يقولون :

هنيئاً للحبيبين !

وتناهى إلى والد « صابحة » ما بين ابنته وبين الفتى

« عبد السميع » من محبة وهيام ، فلم يقع ذلك منه موقع الرضا ، وكيف يروقه ذلك وابنته مهوى فؤاد « شيخ البلد » نفسه ، والأمل وثيق فى أن يتم بينهما زواج .

وحدث ذات يوم أن توخى الفتى منزل والد « صابحة » يطلب يد ابنته ، فثار عليه الرجل ، وعنف به ، وأنكر منه أن يجرؤ على خطبة فتاته . . .

فأراد « عبد السميع » أن يؤيد طلبته ، ويعزّز خطبته ، فانبرى يكشف لوالد « صابحة » عما يعتلج فى نفسه من مشاعر الود وعواطف الحب ، فما هى إلا أن عصفت بالرجل عاصفة الغضب ، فاندفع يقول للفتى :

أنت تهين شرفى بما تقول . . . أتدرى من تطلب يدها ؟ أقادر أنت على أن تمهرها ؟ اغرب عن وجهى ، وإياك أن تتعرض للفتاة ، إياك أن توقعها فى حبائلك ، وإلا ساءت العقبى .

فخرج الفتى خزيان محسور القلب ، ولكن ذلك لم يفتّ فى عضده ، ولم يفقده الرجاء . . . فعوّل على أن يعمل على إرضاء والد « صابحة » ، كلفه ذلك ما كلفه من جهد وعنت !

تواصل صمت « صابحة » وهى ماثلة قبالة فتاها يتملاها

ولا يملّ ، وفى نظراتها يستبين ما طبعت عليه نفسها من طهارة وصفاء ، وما يعمر جوانحها من طيبة وإيمان .

وكأنما ذكر الفتى سؤاله لفتاته منذ فترة : لماذا تخلفت عن العمل منذ أيام ؟

فاستأنف يقول :

أكانت غيبتك لمرض يا « صابحة » ؟

فنكست رأسها ، وهى تجيب :

لم أكن مريضة !

— ما سرّ غيبتك إذن . . . ؟

فازدادت الفتاة من إطراق ، وجعلت تفرك يديها ، ولا تجيب ، فقال لها الفتى :

ومتى تعودين للعمل ؟

فهمهمت تقول :

لن أعود !

فعرت الفتى دهشة ، وتعجل قائلا :

كيف لا تعودين ؟

فهمت الفتاة أن تجيب ، ولكن الكلمات كانت تحتبس

بين شدقيها ، وأخيراً رفعت إليه رأسها تقول :

ذلك ما أراده أبى !

— ماذا جرى ؟

فشرعت الفتاة تدير على وجهها طرف خمارها ، وهى تقول :

لقد ساء أبى أن تكون بينى وبينك صلة !

فاهتاج الفتى صائحاً :

أيريد أبوك أن يفرق بيننا ؟

فقالت فى استسلام :

ذلك ما يريد .

— وما رأيك أنت ؟

— ماذا فى مكنتى أن أصنع ؟

فتوقدت عين الفتى ، وقال مضطرب الأنفاس :

لا يستطيع أبوك أن يفرق بيننا . . .

فاندفعت الفتاة تقول :

إن هى إلا أيام . . .

فصاح الفتى :

ثم ماذا يكون ؟

فلم تجب الفتاة ، فأتبع الفتى قوله مغيظاً :

لماذا لا تتمين قولك ؟ لماذا لا تصارحينى بأنك أصبحت مخطوبة « لشيخ البلد » ؟ . . . ولكن أقسم لك بالله العظيم ثلاثاً إن هذا الزواج . . .

وهنا اختنق صوته ، ونفرت أوداجه ، واضطربت كلماته ، وهو يقول :

أقسم لك بكل يمين إن زواجك هذا لن يتم . . . لن تكونى لغيرى ما دمت حياً !

ورانت على وجهه جهامة وقطوب ، واكتست قسماته طابع الشراسة والعنف ، فعاجل الفتاة توجس وحذر ، وزوت بصرها فى رقبة وجزع ، وراحت تسائل نفسها : ما لها ترى فتاها على حال لم تعهده من قبل ؟ ما لها ترى سحنته قد انقلبت سحنة نمر مفترس ؟ أهذا « عبد السميع » الوادع الطيع الذى لم ينشب بينه وبين أحد يوماً شجار ؟

ولبث الفتى على حاله هنيهة مكروب الأنفاس ، يبعث من عينيه نظرات شيطان . . . فأقبلت عليه الفتاة تسكن من

روعه ، وتهدئ من ثائرته ، وهى تقول :

روّق دمك يا « عبد السميع ». . . وخل عنك الطيش والنزق !

فاستلان الفتى يقول :

ماذا تريدين منى أن أفعل ؟

— ليس لنا إلا أن نتذرع بالتؤدة والصبر .

— إلى متى نصبر ؟ أننتظر حتى يخرج الأمر من يدنا ؟ أنسكت حتى يتم كل شىء ؟

فأشرعت الفتاة حدقتيها إلى السماء ، كأنها تخصها بقولها :

الأمر كله بيد الله . . . وإنا لمشيئته خاضعون !

فهمهم « عبد السميع » ساهم النظرات يقول :

لم يبق لى فى قلبك حب يا « صابحة » . . . ليس هذا شأن المحبين !

فصمتت الفتاة برهة ، ثم انخرطت فى البكاء دفعة ، فاضطرب الفتى فى وقفته ، ومال عليها يأخذ بيدها إلى داخل المخزن المهجور ، وأجلسها هنالك على كومة من الهشيم ، وطفق يمسح دمعها ، ويقول لها فى تلهف وتوجع :

لا تبكى يا « صابحة » . . . فإن بكاءك يذيب قلبى . . . إنى على ثقة بحبك إياى . . . ولكن هذه الخطبة وقعت من نفسى كأنها طعنة خنجر . . . لن أدخر وسعاً فى سبيل فسخ هذه الخطبة . . . سأعود إلى أبيك أخطبك إليه ، وما أحسبه هذه المرة يردنى كما فعل من قبل . . . ليوافقنّ . . . ليوافقن . . .

فحدقت إليه « صابحة » وعيناها مخضلتان ، وسألته :

كيف يوافق أبى على خطبتك إياى ؟ كيف تفسخ خطبة « شيخ البلد » ؟

فهم « عبد السميع » أن يتكلم ، ولكن شرق بريقه ، فلم ينبس ، وظلت الكلمات تتقاتل بين شدقيه ، وعيناه تبصّان ، وأخيراً أفلتت منه هذه الجملة :

ليوافقن أبوك على أن أخطبك لى . . . الوسيلة هذه المرة حاضرة . . .

— أية وسيلة ؟

فجعلت حدقتاه تدوران فى محجريهما ، لا يقر لهما قرار . . . وبعد قليل مدّ يده إلى كتف الفتاة يهزها ويقول :

عندى المهر . . . عندى المهر !

فرفعت الفتاة يدها إلى عينها وأنفها ، تمسحهما بكمها . وتألقت على وجهها ابتسامة ، وحملقت تقول :

أعندك المهر ؟ . . . أعندك ثلاثون جنيهاً ؟

— عندى . . . عندى !

— معك ؟

— معى . . . فى جيبى . . . أتريدين أن تريها ؟

ثم دس يده فى جيبه ، وأخرجها تحمل رزمة من ورق النقد ، ومضى يقلبها أمامها مهتاج الأوصال ، وهو يعدّ بصوت مسموع

خمسة . . . عشرة . . . خمسة عشر . . .

فلما بلغ الثلاثين سما إلى الفتاة ببصره يقول :

هذا مالك يا « صابحة » . . . هذا مهرك الذى سأقدمه غداً إلى أبيك . . . تأمليه . . . خذى هذه الأوراق فقلبيها بين يديك ، إنها لك وحدك !

وألح عليها فى أن تأخذ ورق النقد ، بيد أن « صابحة » أبت أن تمد إليه يمينها ، إذ كانت شاردة الفكر ، تسأل :

من أين لك هذا المال يا « عبد السميع » ؟ . . .

فعقد الفتى ما بين عينيه ، وأجابها :

ليس لك أن تعلمى . . . حسبك أن مهرك حاضر !

وتكلمت « صابحة » كأنها تناجى نفسها بقولها :

ليست لك دابة فأقول إنك بعتها ورجعت بثمنها !

ثم سكتت لحظة تحدق إليه وتقول :

وليس لك أقارب فأقول إنهم أقرضوك أو أعانوك !

فقال « عبد السميع » ثائراً :

لم أستدن من أحد قريب أو غير قريب !

فاستكملت الفتاة قولها :

أما سيدك الشحيح « حسن أغا » فهيهات أن يجود لك بشىء . . . أنّى لك هذه الجنيهات الثلاثون ؟ اصدقنى !

فاغتم الفتى لهذه المحاصرة التى تديرها حوله الفتاة ، وقال فى شدة واحتداد :

لا شأن لك بشىء من هذا كله . . . لست مسئولة !

فقالت فى اهتمام :

أريد أن أعلم مصدر هذا المال . . .

فصاح يقول :

لقد هبط علىّ من السماء . . . فلا تسألينى من أين ؟

فواجهته الفتاة بنظرات استشفاف تتوقد فطنة وفراسة ، وهو يحاول أن يزيغ عنها بصره ، كأنه يحذر أن تقرأ ما ستر من أمره . . .

ولبثت الفتاة وقتاً وهى تتكشف وتتعرف ، ثم ضربت صدرها بيدها وهى تقول :

أخشى أن يكون هذا المال مال « حسن أغا » . . . وأنك مددت إليه يدك !

فصرخ « عبد السميع » مرتبكا يقول :

ما هذا الكلام الفارغ ؟ قلت لا شأن لك بشىء من هذا كله . . . أنت تقحمين نفسك فيما لا يعنيك !

— الأمر واضح يا «عبد السميع» . . . ليس المال مالك ، فردّه مكانه ، واستعذ بالله من الشيطان !

— إنه لى ، أتصرف فيه كما أشاء . . .

— بل إنه ليس لك . . . فلا تكابر !

— أتريدين أن تضيع الفرصة ، وأن تتعذّر علىّ الخطبة ، فيتم « لشيخ البلد » أن يفعل ما يريد ؟

— لا يكون مهرى من مال حرام !

فهاج الفتى قائلا :

ما هذا الهراء ؟ سأدفع بهذا المال إلى أبيك وأنا أخطبك إليه . . . وستكونين لى على الرغم من كل شىء !

فأقبلت عليه « صابحة » تلاطفه ، وتقول معسولة الحديث :

لا يسؤك قولى يا « عبد السميع » . . . إنى أحبك ، وأحب الخير لك ، وهذا المال الحرام لا بركة فيه ، ولا نفع منه . . . وإن زواجاً يتم به لا يرضى الله عنه !

وتساقطت العبرات على وجنتى « صابحة » وهى تتضرع إلى فتاها قائلة :

عدنى أن تعيد المال إلى صاحبه !

— لن أعيده إليه . . . لقد أصبح فى حوزتى . . . لا يستطيع أحد أن يسترده منى !

فشرقت الفتاة بدمعها ، وصاحت مخنوقة الصوت :

لا يكون مهرى مالا مسروقاً . . . لا أقبل . . . لا أقبل أبداً !

فمال عليها يكلمها مشبوب الفؤاد :

وأنا لا أطيق التخلى عنك يا « صابحة » . . . محال أن تكونى

لغيرى زوجاً !

والتصق بها يصعّد أنفاسه المتوقدة ، وهو يقول راعش الصوت :

من أجلك يا « صابحة » سرقت هذا المال . . . سرقته من خزانة « حسن أغا » سيدى وولىّ نعمتى . . . ولكنها سرقة يعلم الله أنها عادلة . . . إنى فقير معدم ، لا حول لى ولا طول ، وقد ابتلانى الله « بشيخ البلد » ينافسنى فيك بجاهه وثرائه . . . فبأى سلاح ترينى أحاربه ، وأنا كما تعهدين ؟ لقد سرقت ، ولست أبالى أن أسرق ، إذا كان ذلك سبيلا إلى أن نحيا معاً حياة الهناءة والنعيم . . . لقد قتلنى نبأ خطبتك « لشيخ البلد » ، فقطعت ليلى جالساً القرفصاء ، جاحظ العينين ، وبغتة خطر لى أن أفعل ما فعلت . . . أن آخذ هذا المال . لا أدرى كيف ساقتنى قدماى ، فمددت إليه يدىّ . . . وما أكثر ما وجدت فى الخزانة من مال ، ولكنى لم أصب منه إلا مهرك المنشود . . . قليل من كثير ، وقطرة من بحر . . . ويشهد الله أنى أنوى ردّ المال الذى أخذته حين يتيسر لى فى قابل أيامى أن أرده شيئاً بعد شىء . . . ذمتى لا تقبل مال أحد . . . حدّ الله بينى وبين مال الناس !

وكانت « صابحة » ما برحت تنشج مكتئبة النفس ، وشعرت بأنفاس فتاها تسبح على وجهها ، وبفمه يلامس وجنتها ، وهو يدس ورق النقد فى كفها ، ويقول لها فى صوت أبحّ كأنه فحيح الأفاعى :

أحبك يا « صابحة » . . . لا عيش لى إلا بك يا « صابحة » . . . أنت روحى . . . أنت نور عينى ! . . . ذلك هو مالك فخذيه ، وتصرفى كما تشائين فيه . . .

وطفق « عبد السميع » يلثمهم من خدّ الفتاة قبلات تلو قبلات ، فكانت « صابحة » تشعر بهذه القبلات كأنها لسعات عقرب . . . كما أحست يدها لذع النار حين لمست ورق النقد . . . فإذا هى تدفع فتاها عنها ، وتنأى بنفسها عنه ، وهى تقول :

دعنى يا « عبد السميع » . . . دعنى !

ووقعت عينها عليه ، فأنكرت ما ترى من سحنة راعبة تتمثل فيها نزعات الشر والأذى والافتراس . . . ولكأن هذا الوجه صفحة من الدم قد علتها غبرة قاتمة . . . فما لبثت « صابحة » أن استشعرت مسّ الخوف يسرى فى حناياها . . . فظلت

تتناءى عن الفتى ، وهى تتوسل إليه أن يدعها وشأنها ، ولكن « عبد السميع » لم يكن يفهم مما تريد شيئاً ، وأخذ يقبل عليها فى تلك الهيئة الشنعاء ، فلمح وجهها تتقلص قسماته وشفتيها تتأهبان لإطلاق صرخة . . .

فما أسرع أن قفز إليها يحصرها بين ذراعيه ، ويحتضنها بشدة ، وهو يرغو ويهدر . . .

ونشبت بين الفتى والفتاة معركة كانت الغلبة فيها له . . . فانبعثت « صابحة » تطلق الصيحة بعد الصيحة ، ولكن « عبد السميع » أطبق على فمها بيده الغليظة ، يرد صراخها إلى حلقها مقهوراً مهزوماً . . .

على أن الفتاة استطاعت أن تزحزح يده شيئاً عن فمها ، وهى تقول :

اتركنى . . . لا أقبلك . . . اذهب عنى . . . إنى أكرهك !

فأجابها الفتى بصوته الأجشّ الموحش :

لن تكونى زوجاً لغيرى . . . أنت تحبيننى وأنا أحبك !

— بل أنا أكرهك . . . أكرهك !

فضغطها الفتى ضغطة عنيفة ، فندت عنها صرخة عالية

مفزعة ، تجاوبت بها أرجاء المخزن ، فاضطرب « عبد السميع » فى موقفه ، وخيل إليه أن الناس موشكون أن يحدقوا به ، وأن الفتاة مفلتة من يده ، صائرة إلى سواه . . . إلى « شيخ البلد » غريمه !

وأحس الرجفة تهزّ كيانه ، وكأن غمامة تنبسط على عينيه . وإذا بيديه تحوطان الفتاة فتضغطان عنقها ، وتكتمان أنفاسها . . . على حين كان فمه يجمجم هذه الكلمات كأنها خوار ثور محتبس :

لن تتزوجى « شيخ البلد » ! . . . لن تكونى لأحد دونى ! . . . أنت لى وحدى !

وتداعت قوى الفتاة ، فتراخت عنها يدا « عبد السميع » فإذا هى تتهاوى على كومة الهشيم . . .

ومكث الفتى يحدق إليها لحظات ، وأخذ يستعيد وعيه ، ويثيب إليه رشده ، فركع بجوار فتاته يهزها ، وهو يهيب بها قائلا :

انهضى . . . انهضى !

واندفع يلكزها بقوة ، وقد علا صوته فى رعشة يقول :

ما لك لا تجيبين ؟ . . . انهضى !

وأخذ بكتفها ينهض بها ، فألفى رأسها يميل على صدرها ، وإذا بجسدها يسقط من بين يديه ، لا حراك به .

فسدّد الفتى نظره إليها فى لوعة وفزع ، وهو يرتد عنها خطوات ، وما عتم أن صاح :

كلا . . . لم أفعل شيئاً !

ثم انكفأ على التراب يمرّغ وجهه فيه ، وينبش الأرض بأظفاره ، وهو يئن ويتوجع .

وكان « حسن أغا » آنئذ يجوز بتلك البقعة يتطلع ، وقد أكب على سبحته يتمتم ، وهو يجر قدميه فى خفيه البالليين ، تكسوه جبته الناصلة التى تكاثرت فى جوانبها الرقاع ، وعلى رأسه طربوشه الأزعر يتراخى على أذنيه .

وبينا هو سائر إذ تراقى إلى سمعه أنين ، فدنا من الخزن يتبين ، فرأى « عبد السميع » على حاله يتقلب ، فهرع إليه يقول :

ماذا بك يا « عبد السميع » ؟

فسما إليه الفتى برأسه ، ووجهه مغبر ، وعيناه تغشاهما العبرات ، وقد بسط يده برزمة ورق النقد ، وهو يقول فى

حشرجة المحتضر :

دونك مالك . . . حدّ الله بينى وبينه !

فسرعان ما لقف « حسن أغا » رزمة الورق ، وهو يتفحصها ويسأل :

ألم تمدّ يدك إلى سواها ؟

فصاح به الفتى محنقاً :

ابعد عنى . . . دعنى !

وفى هذه اللحظة ، لمح « حسن أغا » جثة الفتاة على الهشيم ملقاة ، فتدانى منها مذعوراً يستكشف ويتعرف ، فما إن تجلت له حقيقة أمرها ، حتى اضطرب فى وقفته ، وارتد إلى الوراء راكضاً يصيح :

إلى السارق ... إلى السارق ... إلى القاتل ... إلى القاتل !

فاته القطار . . . !

بلدة « المحاسنة » قرية من تلك القرى القابعة فى صميم الريف ، لا يميزها إلا شيئان : تلك المحطة العجوز الشوهاء التى يقف عليها خلال اليوم قليل من قطارات الركاب فى ذهاب وإياب ، وذلك المكتب الذى يحمل على جبينه لوحاً شاحباً ترياً ، تقرأ عليه ما تبقى من حروف كلمة « بريد » .

فى هذا المكتب يتربع « العنترى أفندى » يصرّف الأمور ، وهو رجل تكاملت له الأربعون ، ظل يعمل فى مكاتب البريد منذ التحق بخدمة الحكومة ، وما زال يتنقل من صقع إلى صقع حتى اطمأن به المقام وكيلا لمكتب بلدة « المحاسنة » ، فلبث بها قرابة خمسة أعوام لا يصافح وجهه بلداً سواها .

وكان « العنترى أفندى » يقضى فى هذا المكتب أكثر يومه ، جالساً على كرسيه ، مقبلا على كومات الرسائل يطبعها بخاتمه ، ويقذف بها ذات اليمين وذات الشمال ، وهو مهتاج الخاطر ، مقطب الجبين ، فلا يكاد يلمح غلامه

الذى يدعوه « بالمراسلة » حتى يصب عليه جام غضبه ، آخذاً عليه صنوفاً من التقصير والإهمال ، ناقماً على تلك الساعة التى رمته بهذه البلدة الحقيرة المغمورة ، لاعناً أولئك الأهلين الأجلاف الذين يسببون له ما لا يطاق من المضايقات ، فإن سئم لسانه تكرار الشتم والسباب لغلامه ولأهل القرية عاد باللائمة على نفسه المتطامنة الكسول ، تلك التى رضيت بالخنوع والاستسلام .

وبعد فترة تمتد يد « العنترى أفندى » إلى درج مكتبه ، ينبش فيه ، فإذا هو يستخرج إضمامة فى جانب من الدرج ، وما هى إلا أن يبسطها بين يديه ، ويتوسم ما ضمت من صور الغانيات وكواكب المسرح والسينما ، تلك الصور التى كان يحرص على انتزاعها من الصحف والمجلات ، ويعنى بحفظها فى هذه الإضمامة ليتملاها حيناً بعد حين . فإذا قضى « العنترى أفندى » وطره من التوسم والتملى ، وأرضى نزعة الشغف بين جنبيه ، شاعت على أساريره سارية من الطلاقة والارتياح .

وينتهى « العنترى أفندى » من عمله ، ويغلق باب مكتبه ، فيبرز إلى الطريق متهالكاً فى سترته الصفراء الكاسفة ذات

الأزرار النحاسية الصدئة ، وهو يجر رجليه فى نعلهما البالية العفراء ، حتى إذا بلغ قهوة « مانولى » اقتحمها فى غطرسة وتأمّر ، ولا يلبث أن يقتعد كرسيه المختار فى صدر المشرب ، وما هى إلا أن يوافيه « مانولى » بقدح القهوة وبالجوزة متوهجة عليها النار ، فينقل فمه بين القدح يثرشف منه ، والجوزة يجتذب أنفاسها ، وعينه مشرعة إلى الطريق تروح عليه مواكب السابلة وقطعان الدواب مثيرة حولها سحائب الغبار .

ولا تكاد الجوزة تلفظ على شفتى الرجل آخر أنفاسها ، حتى يقوم من مكانه آخذاً سبيله إلى « جسر الترعة » يذرعه ، متلهياً بمرأى نساء القرية وهن يردن الماء ليملأن الجرار ، ويصدرن عن الترعة آيبات إلى الأكواخ . . . وكثيراً ما قام بنفسه أن يتدانى منهن ، وأن يبادئهن بالحديث والمداعبة ، ولكنه كان فى كل مرة لا يكاد يهم بذلك حتى يحجم هيّاباً ، ويرتد خجولا ، وهو يصعد من صدره زفرات اللوعة والتحسر !

ولا يفوت « العنترى أفندى » أن يلزم مكانه من الجسر ، حتى يجوز « القطار السريع » أمام عينيه ، يهز الأرض بسطوته

ويملأ الفضاء بزئيره ، فيثير فى نفس الرجل نشطة وحيوية ، ويحمل إليه نفحة من عالم اليقظة والنور .

ويختم « العنترى أفندى » طوفته بالتعريج على حانوت « عم ربيع » الذى لا تدرى أى شىء هو مختص بالاتجار فيه ، فلك أن تقول إنه حانوت لا يحوى من شىء ، ولك أن تقول إنه حانوت يتوافر فيه كل شىء !

فى هذا الحانوت يستطيع « عم ربيع » أن يسد جوعة « العنترى أفندى » حين يحل به طالباً الطعام ، فيجهز له ما تيسر ، ويبسط له من طوارئ الأخبار ومن الطرف والنوادر ما فيه متعة وسلوى .

و « العنترى أفندى » يعرف فضل يومى « الجمعة » و « الأربعاء » على سائر أيام الأسبوع ، فهو يظفر فى هذين اليومين بألوان من الحياة يستروح فيها بعض الترفيه والمتاع .

فى يوم « الجمعة » يحرص على أداء الفريضة فى زاوية البلدة ، لا يعنيه إلا أن يتفرج بمنظر الوافدين عليها للصلاة ، وهم متزاحمون على حوض الماء يتوضأون ، مستمعاً إلى ما يخوضون فيه من أشتات الأحاديث .

وهو فى يوم « الأربعاء » يحرص على أن يشهد « سوق الأسبوع » لا ليشترى أو ليبيع ، ولكنه مع ذلك لم يكن يدع شيئاً مما يعرض فى السوق إلا ساوم فيه ، وإنه ليغلو فى مماكسته للباعة ، حتى ينتهى أمره معهم إلى مشاجرة وعراك ، فإذا به يتوسط الحلقة منتفخ الأوداج ، يلوح بيديه ، ويرفع من صوته ، منددا بأولئك الباعة الذين خربت فيهم الذمم ، واستبدّ بهم الشره ، فراحوا يتكالبون على كسب حرام . . .

فإذا فصل عن السوق ، مضت به إلى البيت أتان عجفاء ، وقدماه متدليتان تشقان على أديم الأرض خطين واضحين يباريان ما تركته حوافر الأتان من آثار . . .

وتذهب به الأفكار فى مسيره كل مذهب ، فتراه ينحى على شعرات لحيته التى لم تمسها الموسى منذ أيام ، مقتلعاً إياها من منابتها ، دون وعى . وفى الفينة بعد الفينة يتصيد ما تشعث من شاربه ، فيقرضه بأسنانه فى غير إشفاق .

ولم يكن فى القرية أحد يراه « العنترى أفندى » كفئاً لصداقته ، فعاش الرجل فرداً لا يأنس إلى جليس ، طابعه التجهم والعبوس . حتى إن « ناظر المحطة » على رفعة مقامه

وعلو سنه لم يكن يحظى منه بألفة وإيناس ، فهو — فيما يراه « العنترى أفندى » — رجل خامل الروح ، تافه الشخصية ، بغيض . . . على أن ذلك كان دأبه فى معاملة كل من تعاقبوا على نظارة المحطة خلال إقامته فى البلدة خمس سنين !

ويوماً هبط المحطة ناظر لها جديد ، فكان لا بد أن يخف إليه « وكيل البريد » يستقبله ويهنئه ، فلم يجد فيه شيئاً يجتذب هواه ، بل راعه منه ما يخشاه ، إذ كان الناظر الجديد هائل الجرم ، مقطب الجبين . . . له عين براقة كعين الصقر ، وله شارب غزير متمرد الأطراف !

وتواردت أيام ، واستطار فى البلدة أن الناظر الجديد له زوجة سودانية هى آية فى الملاحة والحسن ، وأنها فى زهرة العمر ، رشيقة القدّ ، ذات دل وظرف ، لها فن المتحضرات فى حسن التزين ، ولها ذوقهن فى وسائل العيش .

وكانت أنباء هذه المرأة تتزاحم على سمع « العنترى أفندى » يوماً بعد يوم ، تتجلى فيها خلابة الوصف وروعة التصوير ، فجعل يرهف السمع لهذه الأنباء شيئاً بعد شىء ، بل إنه حرص على أن يتلقّطها من كل سبيل . . .

وعجب الرجل من أمره بعد ذلك ، كيف إذا استرخى على مقعده ، تمثلت له زوج « خميس أفندى » ناظر المحطة طيفاً رفافاً يبعث فى قرارة نفسه نشوة الأحلام .

وبينما يكون « وكيل البريد » فى غمرة من عمله ، منكفئاً على الرسائل ينهال عليها بالخاتم المعهود ، وعن كثب منه ركام اللفائف يتناولها فيقذف بها هنا وهنالك ، وقد وقف تجاهه غلامه الذى يدعوه « بالمراسلة » يتلقى أوامره بلا حساب — إذ به يقبل على الغلام بغتة يسأله :

ألم يقع بصرك على زوجة « ناظر المحطة » يا ولد ؟

فيفغر الغلام فاه فى ابتسامة بلهاء ، وهو يقول :

لم أرها قط يا أفندى !

فيحدجه الوكيل بنظرة إصغار ، ويغمغم قائلا :

ماذا تعمل إذن فى هذه البلدة يا غبى ؟

وألفى « العنترى أفندى » نفسه على توالى الأيام متوداً إلى « خميس أفندى » ناظر المحطة الجديد ، راغباً فى أن تتوثق بينهما أواصر الإخاء ، فقد استبان له أنه كان مخطئاً فى الإعراض عن ذلك الرجل ، مسيئاً فهم شخصيته الجديرة

بالتكريم والإكبار ، ومن ثم أصبح الآن يختلف إلى المحطة ، بعد أن كانت قدمه لا تطؤها إلا فى الندرة . وحين يقف « قطار الركاب » على رصيف « محطة المحاسنة » ، ويهل الناظر من حجرته متخطراً كالضرغام الركين ، يتراءى فى ظله « العنترى أفندى » ، وهو يكثر من التطلع إليه ، ولا يفتأ يفرك يديه ، وعلى فمه تنطبع ابتسامة التودد والزلفى . . .

ونمى إلى « العنترى أفندى » أن زوجة « ناظر المحطة » قد ألفت أن تخرج فى الفترات أصيلا إلى دار العمدة تزور زوجه ، وأنها تجوز فى طريقها إلى الدار بحانوت « عم ربيع » . . . فلم يكد « العنترى أفندى » يعرف ذلك حتى أدخل على برنامجه اليومى تعديلا جديداً لم يكن له به عهد .

ما إن يرفع « شيخ الزاوية » صوته بأذان « العصر » حتى يتراءى « العنترى أفندى » مغادراً بيته ، حليق اللحية ، نظيف الملبس ، يلتمع حذاؤه ، وهو يسير متبختراً يتفقد هندامه ، ومن ورائه غلامه يتبعه حاملا كرسياً ذا مسندين ، ووجهتهما معاً حانوت « عم ربيع » فيقتعد الرجل كرسيه واضعاً ساقاً على ساق ، وفى عينيه بريق الترقب ، وعلى وجهه إشراقة الأمل . . .

وقد ينقضى الأصيل ، وتغرب معه الشمس ، وقد ذهب الترقب سدى ، وضاع الأمل هباء ، وحرمت عين « العنترى أفندى » أن تقر بمرأى الغادة السودانية المنشودة ، فينهض الرجل فى غبشة الليل ، راجعاً إلى بيته ، محنى الهامة ، يقرض بأسنانه ما تشعث من شاربه ، وقد غشيه سهوم . . .

على أن الشمس كانت تطلع على « العنترى أفندى » فى صبيحة غده ، تجدّد من ترقبه ، وتحيى من أمله ، فلا تكاد الزاوية تعلن أذان العصر حتى يأخذ سبيله إلى حانوت « عم ربيع » ، وخلفه غلامه يحمل له الكرسىّ العتيد !

وذات أصيل ، بينما كان « العنترى أفندى » متسنما كرسيه ، على باب الحانوت ، إذ أحس برعشة تسرى فى أوصاله ، وارتباك يسود حركاته ونظراته . . . لقد مرت به الحسناء السودانية ، فعلقت بها عينه منذ لاحت من بعيد ، حتى طوتها معاطف الطريق ، ولكنه على الرغم من ذلك طفق يسائل نفسه :

ماذا رأى منها ؟ وماذا استبان له من سماتها وقسماتها ؟

فلم يجد عند نفسه من جواب ، وقصارى أمره أنه مسحور

العين بما رأى ، وأنه عامر القلب من غبطة وانتشاء .

وهكذا أصبح « العنترى أفندى » يجرى فى حياته على نظام جديد ، فلم يعد يقصد إلى قهوة « مانولى » يقضى فيها ساعة الأصيل ، ولم يعد يذهب إلى « جسر الترعة » ليرقب حاملات الجرار من نساء القرية ، وأمسى « القطار السريع » يمر فى جلجلة ودوىّ ، دون أن يوليه الرجل نظرة أو يلقى له سمعاً . . . أما « سوق الأسبوع » فقد تخلف عنها « العنترى أفندى » فأراح واستراح ، وأما صلاة « الجمعة » فلم يعد يجتذبه منها ما كان يشهده فيها من قبل .

لقد صار « العنترى أفندى » على مر الأيام رسالة بريدية حية ترد إلى حانوت « عم ربيع » أصيل كل يوم بانتظام . . . وتسنّى « لوكيل البريد » بهذه المثابرة الموصولة أن يرى زوج « ناظر المحطة » غير مرة ، وأن يتملى فتنتها على مهل . وكان مما يهزّ نفسه نحوها شعوره القوىّ بأنها توليه لفتة من طرف خفى ، وعلى فمها تختال ابتسامة فتانة خلوب .

ولطالما بنى « العنترى أفندى » عزمه على أن يرد تحية المرأة بمثلها ، ولكن كانت تخذله إرادته ، ويقعد به جموده ، فلا يملك

لأوصاله تصريفاً .

ونبتت بين « العنترى أفندى » و « عم ربيع » مودة وائتلاف ، فهما يقضيان الوقت أمام الحانوت يخوضان فى شجون من الحديث ، وكان « عم ربيع » أذناً صاغية يجد فيها « العنترى أفندى » مجالا طيباً كريم الساحة ، يودعه كل ما يجيش فى وجدانه من عواطف ومشاعر ونزعات .

وفى أكثر من مناسبة سمع « عم ربيع » جليسه « العنترى أفندى » يتحدث إليه فى خصائص السودانيات ، وما يتميزن به من طراوة أجسام ، واستواء قامات ، وما يتجلى فى نفوسهن من حيوية العاطفة وحرارة الشعور !

وكان « العنترى أفندى » وهو يتوخى هذا الحديث ، يبدو وهاج النظرات ، مشبوب الشغف ، قوىّ الحنين ، لا يمل الترداد والتكرار ولا يبالى علائم السأم التى تتوضح على وجه « عم ربيع » وهو يعانى مرارة الصبر والاحتمال .

وأحس غلام « المراسلة » بأن سيده « وكيل البريد » قد تبدلت حاله ، وأنه قد عراه انقلاب ، فهو يدخل المكتب ناشطاً ، بسام المحيا ، أنيق البزة ، ملتمع الحذاء ، يلقى على

غلامه تحية الصباح فى وداعة وتلطف ، وهو لا يفتأ يجاذبه أطراف الحديث فى غير تطاول عليه ، ولا أنفة منه . وإنه فى شتى شئونه لهيّن لين لا عنف فيه ولا وعورة ، حتى إن الرسائل لم يفتها نصيبها من هذا الانقلاب ، فقد أصبحت الآن تتلقى وقع « خاتم البريد » من يده فى رفق وهدوء !

وأكبر ما فرح به غلام « المراسلة » من آثار هذا الانقلاب أنه قد انزاح عن عاتقه ذلك العمل الذى كان يؤديه على كره ، وهو القيام بغسل ثياب سيده ، فقد اختار « العنترى أفندى » إحدى نساء القرية لتقوم بغسل ثيابه ، فكانت هذه أول امرأة تدخل بيته منذ هبط القرية .

وحدث ذات يوم أن دخل الغلام بيت سيده على حين غفلة ، فرأى ما هاله وأذهله . . . رأى هذه المرأة واقفة عن كثب من طشت الغسيل ، وهى فى ثوبها الذى يكشف عن ذراعيها وساقيها ، وقد اعتنقها « العنترى أفندى » فى وجد وتوقد وهيام . . . فارتد الغلام عن البيت متسللا يحاول أن يكتم اهتياجه . . .

وكثيراً ما كان سيده يدعوه فى العشىّ ليأتنس به ، ويبدد

معه مكاره الوحدة ، فإذا طاب لهما السمر ، تطلع « العنترى أفندى » إلى السماء ، وجعل يترنم بأغنية لم يكن يمل تكرارها ، وهى :

القمر له ليالى . . . يطلع لا يبالى !

وكان يطلب إلى غلامه أن يردّد معه مقاطع الأغنية ، فيجيبه إلى ذلك فى طرب وابتهاج .

ويخرج الغلام بعد هدأة من ليل ، فيخلو « العنترى أفندى » بنفسه ، متخذاً له مجلساً بجوار النافذة ، مطلقاً لفكره عنان الخيال ، فإذا به يحوم بنظراته فى فضاء الطريق ، وقد شاعت فيه الحلكة ، وخيمت عليه الوحشة ، ولا يفتأ الرجل محدقاً حياله ، مرهف السمع ، مشبوب الهيام ، يؤمل أن يلوح لعينيه طيف من يحب ، مسترقاً إليه الخطا ، قاصداً أن يطرقه فى جنح الظلام !

وقد صب « العنترى أفندى » عبقريته ولباقته فى إظهار الولاء لناظر المحطة الجديد ، يتطوع له بالخدمة ، ويتحدث عنه بالخير فى كل مكان ، ويغلو فى الحفاوة به جهده ، بل لقد ألزم نفسه بأن يهدى إليه فى الفينة بعد الفينة طرائف من

خيرات الريف ، فلم يجد « ناظر المحطة » إزاء هذه المودة والتلطف إلا أن يدعو « وكيل البريد » إلى تناول الغداء معه فى بيته ، فتقبّل الرجل هذه الدعوة والدنيا لا تكاد تسع فرحته واغتباطه ، وقدم على بيت الناظر فى اليوم الموعود يتألق كالعروس واتخذ مجلسه مذهولا تستغرقه الأخيلة والأحلام . وقضى وقته مع مضيفه يستمع إلى حديثه الفياض . لقد لبث « خميس أفندى » يسرد ما قام به فى حياته من خطير الأعمال ، وما جدّ من نظم المحطات ، وما احتمل من جسيم التبعات . فكان « العنترى أفندى » يمجد عمله ، وهو يردد كلمته المألوفة :

الله . . . الله . . . عظيم . . . عظيم !

وفيما هو يصغى إلى جليسه ، كانت تتهادى إلى أذنه خفقات أقدام رقاق ، تصحبها وسوسة أساور ورنات خلاخل ، فينصرف إليها بسمعه كله ، وقد هزته نشوة ، وازداد قلبه من خفوق .

وتكررت دعوات الناظر الجديد لوكيل البريد ، واستفاض حديث الرجل فيما اضطلع به من خدمات لمصلحة السكة الحديدية ، خدمات لو كوفئ عليها حق المكافأة ، لكان

الآن على رأس المناصب ينعم بعليا الدرجات . فلا يملك « العنترى أفندى » إلا أن يعلو صوته بكلمته الخالدة :

الله . . . الله . . . عظيم . . . عظيم !

وهو فى وليجة نفسه مرهف الحس ، دقيق الترقب ، يتسمع لكل نأمة تجرى فى البيت ، حتى إنه لا تفوته الهمسات من وراء الحجرات . . .

وكانت فطنة « العنترى أفندى » تأبى عليه إلا أن يؤمن بأن كل مايجرى فى البيت من حركات وأصوات لم يكن إلا رموزاً وإشارات تبعث بها زوجة الناظر ، حاملة معها معانى التواصل والتودد والترحيب .

وفيما كان « العنترى أفندى » صبح يوم على مكتبه ، يدق الرسائل بخاتمه ، إذ دخل عليه رسول من قبل « ناظر المحطة » يبلغه أن حضرة الناظر سيهدى إليه ظهر اليوم لوناً طريفاً من الطعام يكون له غداء شهياً !

وعجل « العنترى أفندى » إلى بيته ينتظر الهدية المرموقة ، ويعدّ العدة لاستقبالها ، ورأسه تتناوح فيه الأخيلة والأطياف . وجاء رسول بيت الناظر يحمل إليه صينية تتوسطها صحفة من

« الويكة » الفاخرة ، ذلك المطعم الذى لا يجيد طهوه إلا الماهرات من بنات « السودان » . . . فشمر « العنترى أفندى » عن ساعد الجوع ، وقد التهبت شهيته ، وجاشت مشاعره ، وأقبل يلتهم الطعام ، وهو يتمثل فى خاطره تلك السودانية الحسناء ، متلطفة به ، ترنو إليه ، فى فتنة وإغراء ، وكأنها تقبل عليه تسأله :

كيف وجد مذاق طعامها الذى طهته له ، تخصه به ؟

ولم تخامر الرجل خلجة من شك فى أن أمر هذا الغداء لم يكن إلا من تدبير زوجة الناظر ، فهى التى تخيرت صنفه ، وهى التى اقترحت إهداءه ، وما زوجها حيال ذلك كله إلا « أداة تنفيذ » !

ولبث « العنترى أفندى » فى هذا الأفق الجديد من حياته فترة طيبة ، ينعم بالأنس والبهجة والأمانى العذاب .

وفى ضحوة يوم دخل غلام « المراسلة » على « وكيل البريد » مهتما يقول :

ألم تسمع الخبر يا أفندى ؟

— أى خبر يا ولد ؟

– نقل حضرة الناظر .

وبوغت « العنترى أفندى » فغص بريقه ، وبقى هنيهة لا يملك أن ينبس . ثم نهض دانيا من الغلام محملقاً فيه يقول :

نقل حضرة الناظر ؟ كيف ؟ !

وأخذ بكتف الغلام يهزه ، وهو يقول :

من أين علمت الخبر ؟

– من المحطة .

وأسرع الرجل يغادر مكتب البريد ، قاصداً المحطة ، مندفعاً إلى حجرة الناظر ، فما إن دخلها حتى واجه « خميس أفندى » بقوله :

أىّ خبر هذا الذى سمعته ؟

فابتسم له الناظر قائلا :

هذا ما كان . . . تلقيت أمراً بنقل عاجل . . . سأرحل فى الغداة !

فامتقع « العنترى أفندى » وارتعشت شفتاه ، دون كلام . . . فلاطفه « خميس أفندى » بقوله :

إنى أعرف شعورك ، وأقدّر صداقتك . . . ولعل فراقنا لا يطول !

وخرج « العنترى أفندى » يدور رأسه ، ويزيغ بصره ، واتخذ سبيله إلى مكتب البريد ، فاستقبله الغلام ترتسم على فمه ابتسامة بلهاء ، وهو يقول :

ألم تجدنى صادقاً فيما أخبرتك به ؟

فحدجه الرجل بنظرة نكراء ، وهو يقول له :

أراك لا تنشط إلا لأخبار السوء يا غراب البين . . . أنفضت عن المكتب غباره اليوم ؟

— نفضته يا أفندى ؟

فمر الرجل بإصبعه على ظهر المكتب ، وهو يقول :

كذاب . . . كذاب . . . المكتب يعلوه الغبار !

وما هى إلا أن هجم على الغلام ، تارة يعرك أذنه ، وطوراً يلكزه ويركله ، حتى تركه بباب المكتب يتلوّى من الألم ، وينخرط فى البكاء .

وفى الظهيرة رئى « العنترى أفندى » سالكاً الطريق إلى حانوت « عم ربيع » وهو ساهم يقرض ما تشعث من شاربه ،

ووراءه غلامه يتبعه بالكرسى .

وأصاب الرجل غداءه أمام الحانوت لقيمات ، ولبث هنالك ينتظر ، متنقلا بكرسيه يمنة ويسرة ، وهو يوازن بين المواقع ، ليختار أكثرها ملاءمة للترصّد ، وأحسنها تمكيناً له من التملى وإنعام النظر . . .

وطال بالرجل الجلوس ، وشقى ساعات بالانتظار ، حتى انسدل أمام عينيه ستار الحلكة ، فلم يدر أظلمة نفسه هى أم ظلمة الليل ؟ !

ونهض « العنترى أفندى » وقد خاب أمله فى أن تكتحل عينه بمرأى الغانية السودانية فى ليلة الرحيل . . .

وعاد إلى بيته منهوك القوى ، كسير الفؤاد ، يحاور نفسه :

ماذا أبطأ بها عن الخروج عصر اليوم ؟

أتراها أشفقت على نفسها وعليه من نظرات التناجى فى ساعة التوديع ؟

وعانى « العنترى أفندى » ليلة ليلاء ، ينبو وساده به ، ويشتد أرقه وقلقه ، حتى انشق أمام عينيه عمود الصبح ، لم يذق فى ليله غمضاً . . .

وما هى إلا أن ألفى جسمه يتثاقل ، وأعصابه تخمد ، فلكه سبات عميق .

ولم يوقظه إلا طرق عنيف بالباب ، فإذا غلامه يخبره بأن الساعة قد جاوزت العاشرة ، وأن السائلين عن وكيل البريد كثير ، وأن المحطة تحفل بمن قدموا يودعون الناظر المنقول . فهبّ الرجل مذعوراً عجلان يسبّ غلامه ، ويصبّ على رأسه جام غضبه ، آخذاً إياه بأنه قصّر فى الحضور لإيقاظه فى البكور .

وما هى إلا هنيهة حتى كان « العنترى أفندى » يعدو إلى المحطة عـــدواً ، وهو يفتل شاربه ، وينقذ ما يمكن إنقاذه من زيه المهوّش . . . وأقبل على المحطة حائر النظرات ، سريع التلفت ، يدفع بمن يصادفه فى طريقه ، حتى ألفى الناظر يتوسط المحطة فى لمة من المودعين ، فهرع إليه ينحنى على يده ، وهو يقول :

داهمنى مرض كاد يحرمنى أن أحضر لتوديعك . . . ولكنى تحاملت على نفسى .

فربّت الناظر كتفه ، يشكر له عاطفته ، ويقدّر له

موفور وفائه ، على حين كان « العنترى أفندى » يحوّم بنظراته فى أرجاء المحطة يتوسم ويتنسم ، لعله يعرف مكان درته الغالية ، ليتزود منها بالنظرة الأخيرة . . .

وجلجل القطار يتهادى إلى المحطة ، فازداد « العنترى أفندى » من ترصّد وتطلع ، وما إن وقف القطار حتى تخطر إليه « خميس أفندى » وهو يشدّ على أيدى مودّعيه ، فلم يملك « العنترى أفندى » إلا أن يقول للناظر فى لهفة وتشوّف :

والسيدة حرمكم ؟ . . . والسيدة حرمكم ؟ . . .

فأجابه الناظر ، وهو يصعد المركبة :

لقد سبقتنى بالسفر فى قطار الصبح .

فوجم الرجل فى وقفته ، وعراه ذهول ، ولم يشعر بنفسه إلا وقد غمره المودّعون متسابقين إلى تحية الناظر ، تحت نافذة القطار ، وهو على أهبة المسير .

وتحرك القطار فى تؤدة وأناة ، فأتبعه « العنترى أفندى » نظرات حسرة والتياع ، وجعل القطار يتزايل رويداً عن عينيه ، فيشعر بأن جانباً من حياته يتزايل معه ، جانباً كريماً كان أثمن كنز عنده ، وأعز شىء لديه .

وأصيلا دخل غلام « المراسلة » على « العنترى أفندى » يقدم له قدح القهوة ، فما إن ارتشف الرجل منه رشفة حتى قال للغلام عابساً :

ما هذه القهوة الكريهة ؟ إنها من بن ردىء !

فعجل الغلام بقوله :

هذا هو البن الذى أصنع لك منه القهوة كل يوم يا أفندى .

— كذاب . . . كذاب !

— والله العظيم .

فقاطعه الرجل صائحاً به ، وهو يقذف بالقدح فى وجهه :

اغرب عنى ، وإلا حطمت رأسك . . .

فأدبر الغلام هارباً .

وفى الصبيحة دخل الغلام على « العنترى أفندى » يخبره بمقدم المرأة القروية لتقوم بغسل ثيابه فى موعدها الأسبوعى ، فزمجر الرجل قائلا :

وما صناعتك أنت إذن يا ولد ؟ . . . لا تدخل بيتى امرأة . . . اغرب عن وجهى !

وانسابت الأيام تذهب شيئاً بعد شىء بما كان يبدو

فيه « العنترى أفندى » من أناقة وحسن هندام ، وتغيض ما كان له من بشاشة ولطف وإيناس .

وأصبح الرجل يظهر فى سترته الصفراء الكاسفة ذات الأزرار النحاسية الصدئة ، متسكع الخطوات إلى قهوة « مانولى » يدخن الجوزة صامتاً ساهماً يخلط بأنفاسها زفراته الحرّى ، ثم ينهض خاملا إلى « جسر الترعة » يرمق حاملات الجرار بنظرات فيها لهفة وتحسر ، حتى يمر به « القطار السريع » كالبرق الخاطف ، فيبارح مكانه وهو يقتلع شعرات لحيته التى لم تمسها الموسى منذ أيام ، وينحى على على ما تشعث من شاربه يقرضه بأسنانه ، وهو يجر قدميه فى نعله البالية العفراء . . .

وإذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، ذهب إلى الزاوية يفرج عن نفسه بمرأى أهل القرية ، وهم يتزاحمون على حوض الماء يتوضأون ، مستمعاً إلى ما يخوضون فيه من أشتات الأحاديث .

وإذا حضر يوم الأربعاء قصد إلى سوق الأسبوع ممتطياً تلك الأتان العجفاء ، ويظل فى ممارسة ومكاس ،

لا يهدأ له حال إلا بعد تطاحن وعراك .

وإنه ليحرص فى بعض الأصائل على أن يعرج على حانوت « عم ربيع » ، يتصيد صاحب الحانوت ، ليفرغ فى أذنه ما يضيق به من سخط وتذمر وشكاة ، ناعياً على هذه الحيـــاة أن دأبها معاندة ذوى النفوس الطيبة ، وتكدير ما تنطوى عليه جوانحهم من صفاء ونقاء ، آخذاً على الأقدار أنها تفرق بين القلوب المتلاقية فى غير رحمة ولا مبالاة ، مستصغراً شأن هذه الدنيا التى يخطىء الناس فى الإغلاء بها ، وما هى إلا هباء فى هباء !

وبينما هو يحتدّ ، إذا ببصره قد تطلع إلى الطريق الذى كانت تجوز به السودانية الحسناء ، فيغشاه صمت ، وينعم نظره كأنه يتفقد ذلك الشبح الغارب ، مستعيداً ذكراه . . .

ولا يملك « العنترى أفندى » وهو على هذه الحال ، إلا أن يبعث من صدره تنهدة جياشة ، ملؤها الحسرة على حلم جميل كان وانقضى !

ست الكل . . .

كانت الشقة التى أسكنها فى شارع « درب الجماميز » تطل على حانوت « المعلم ياقوت » الحلاق ، وأنا يومئذ أجتاز مرحلة الدراسة فى كلية الطب .

وتوثقت بينى وبين صاحب الحانوت صداقة الجوار على طول الأيام ، فإذا مللت الدرس ، أو تهيأ لى وقت فراغ ، نزلت إليه أجالسه وأحاوره ، فيطرفنى بنوادره وتعقيباته على أحداث الحياة ، طلىّ الأسلوب ، فطرىّ الفكر . ومما حبب إلىّ مجلسه أنه كان لين العريكة ، وديع النفس ، يتنكب عن الشر ويجنح إلى القنوع .

أما « عنقود » صبىّ الحانوت ، فكان فى أوج فتوته ، فارع العود ، عريض المنكبين ، معجباً بنفسه ، شديد الخيلاء . . . إذا غاب معلمه عن الحانوت تراءى بالباب عابثاً بشاربه الطرير ، وهو يتعوج تارة ويرقّص حاجبيه تارة ، مبعثراً نظراته المتبجحة على من يعبرن الطريق ، ولسانه يرشقهن بالبذىء من ألفاظ التحرش والمغازلة .

ولم يكن « المعلم ياقوت » يجهل بعض أخلاق الفتى « عنقود » وطالما عزّره وثار عليه ، ولكنه كان سريع العفو عنه ، راجعاً إلى البر به ، ولا غرو ، فالفتى ربيبه ، كفله منذ الطفولة ، والطريق يكاد يلتقمه بين المشردين الذين لا أهل لهم ولا كنف !

وكنت فى بعض الأحيـــان أنصح لهذا الفتى أن يلزم جانب الحياء ، وأن يكون مطيعاً لمعلمه . بيد أنه كان يستقبل نصحى بابتسامة استخفاف ، ويتمادى فيما هو فيه من غواية ، ولاحظت أنه يتحدث عن معلمه مستطيلا عليه ، متهكماً به ، كأنه لا يباليه . . . فآليت على نفسى ألا أعاود التحدث إليه فى إصلاح أمره ، وشعرت نحوه باشمئزاز وزراية .

وشهدت « المعلم ياقوت » يوماً يكاد يتميز غيظاً من أفاعيل غلامه ، ويشكو من تمرده وتنمره ، فسألته :

لماذا لا يقصيه عنه ويستريح من شره ؟

فأجابنى فى لهجته الفطرية الساذجة :

كدت أقصيه ، لولا أن زوجتى استعطفتنى عليه ، وذكرتنى بأنه يعدم المأوى إذا أقصيته ، وأنى عنه مسئول ، فهو بمثابة ولدى الكبير ، وله علىّ حق .

وحدق فىّ « المعلم ياقوت » وهو يكمل حديثه :

أصابت زوجتى فيما تقول . وما أطيب قلبها فيما تشير به ... لو كان هذا الغلام يستطيع الاستقلال بشأنه لتركته يعول نفسه . . . أتظن أنه على طوله وعرضه يحسن أن يقص شعر غلام ؟ وهل هو صالح لشىء ؟ إنى صابر عليه ، لعل الله يهديه . . .

وانتهى إلىّ من حديث الرجل أنه يقطن حىّ « السيدة زينب » غير بعيد من مقر عمله ، وأن له من زوجته ابنة تبلغ الخامسة تسمى « ست الكل » يشتد بها تعلقه . وكثيراً ما جلبها إلى الحانوت معه ، لكى تتسلى وتلعب على مرقبة منه . وقد شهدتها طفلة بسامة المحيا ، لطيفة الروح ، موفورة المرح ، لا تفتأ تداعب عروسها القطنية الملونة ذات الأهداب الغزار ... فإذا دنوت من الطفلة ملاطفاً أسائلها :

كيف حالك يا عروس ؟

واجهتنى بنظرة وديعة ، وهى تهمهم بالتحية والجواب . ثم تتشاغل بملاعبتها لعروسها القطنية فى حياء ، ولما حرصت على أن أوافيها فى الحين بعد الحين ببعض الحلوى ، أنست بى ، وركنت

إلىّ ، وجعلت تناقلنى حديثها الوادع الرقيق .

وآسفنى ذات يوم أن أرى « المعلم ياقوت » بادى الضعف ينتابه سعال مريب ، فأخذتنى به رأفة ، وعرضت عليه أن أتفحصه ، وأن أبذل فى سبيل صحته قصارى خبرتى الجديدة بالطب ، فتعذر علىّ وتأبّى ، وقال فى إيمان عميق :

يا سيدى . . . على الله الاتكال .

وتكاثرت الفترات التى يتخلف فيها الرجل عن عمله ، وهو يتحل لذلك شتى المعاذير ، ولكن جسده كان يزداد على الأيام من هزال ، ووجهه تعروه دكنة واحتقان .

ومرة أقبلت عليه أصافحه ، فأحسست أنه محموم ، فقلت له من فورى :

أنت تهمل صحتك يا « معلم ياقوت » . . . ما كان أولاك بأن تلزم فراشك اليوم .

فكسر عينيه صامتاً ، سارح الفكر ، ثم ابتسم ابتسامة محسورة يقول :

من يطعم أسرتى إن طاوعتك فلزمت الفراش ؟ أفحسبت أن « عنقوداً » قادر أن يكسب لنا بضعة دراهم ؟ وهل فى مستطاع

هذا المتسكع على طوله وعرضه أن يقص شعر غلام ؟ قلت لك الاتكال على الله يا « دكتور » !

على أنه اضطر أن يحتبس فى فراشه بعد أيام ، وعدته فى داره ، مصطحباً أحد الأطباء المتخرجين ، وزاولت معالجته ومعاونته بقدر المستطاع ، حتى خفّت عنه وطأة العلة ، وزايلته بعض أعراض الداء .

وأبطأتُ عنه حيناً ، ثم قصدت داره فى الضحوة ، فلما طرقت الباب طال انتظارى وأنا أسمع هرجاً يمازجه دبيب الخطا تغدو وتروح ، وأخيراً فتح الباب عن زوجة « المعلم ياقوت » شعثاء عليها اضطراب ، وقالت متلعثمة :

المعلم خرج .

وما لبثتْ أن أغلقت الباب ، فوجدتنى لحظات لا أريم مكانى ، وقد تملكنى فضول ، وإذا سمعى يتلقط همسات حبيسة تبينت فيها صوت الزوجة تتحدث إلى صوت ليس بالغريب علىّ . . . وسرعان ما انقطع الهمس ، فعجلت أنصرف ، متوخياً حانوت « المعلم ياقوت » فألفيت الرجل على بابه يلاطف طفلته ، وهى تهدهد عروسها القطنية ، فانبريت أسأله :

لماذا جشمت نفسك مشقة الخروج ؟ ألا تشفق على نفسك؟

— أنا اليوم أحسن حالا والحمد لله .

فجسست يده أتعرف النبض والحرارة ، وقلت له :

حقاً تحسنت صحتك ، ولكن لا بد أن تحتاط ، وحذار من الإسراف على نفسك فى العمل . . . لماذا أراك مصراً على أن تترك صبيك « عنقوداً » وشأنه ؟ ألا تجعله يعينك فى عملك بعض العون ؟

فأجابنى ساخر اللهجة :

« عنقود » ! . . . وأين « عنقود » ؟ إنه يبدو حيناً ويختفى أحياناً . . . منذ ثلاثة أيام لم يقع نظرى عليه .

فعجبتُ أشد العجب من قوله ، وسمعى تعاوده تلك الهمسات التى تسربت إلىّ منذ قليل من خلف الباب ، حين كنت فى بيت « المعلم ياقوت » . وهممت أن أصارح الرجل بجلية الأمر ، ولكنى وجدتنى أطرق ، وأنا محنق أسيف .

ولبث الرجل يواصل التداوى من علته ، بإشرافى عليه ، حتى راجعه نشاطه ، وأشرقت على وجهه البشاشة والتطلق ، فأما « عنقود » فقد انتظم أمره فى خدمة معلمه خيراً مما كان من

قبل ، واستوثقت له إمرة وسلطان . بيد أنى ما كنت أراه حتى أعرض عنه ، يحدونى اشمئزاز منه ، ومقت له .

وأزف الصيف ، وحان أن أسافر لقضاء فترة العطلة ، فرأيت أن أعود « المعلم ياقوت » مودعاً ، وأطلت جلوسى إليه ، أرسم له خطة العلاج ، ومنهج التمريض ، لا آلوه نصحاً وإرشاداً . وانصرفت عنه ، تتبعنى دعواته الصالحات يحأر بها إلى الله .

وعدت فى مستأنف العام الدراسى أواصل العمل ، وقد طال انقطاعى عن العاصمة ثلاثة أشهر . فلما بلغت بيتى ألقيت نظرة على حانوت « المعلم ياقوت » فإذا هو مغلق ، فسألت بعض الجيرة فى شأنه ، فأعلمونى أن الرجل طريح فراشه منذ أسبوع ، فأزمعت أن أزوره من غدى ، ولما أشرفت فى الصباح على داره ، وافقت « ست الكل » ابنة صديقى تفترش الطوار ، على سحنتها كآبة ، وبين يديها عروسها القطنية تعبث بها فى خمول ، فما إن ناديتها حتى هبت إلىّ تجرى . وما لبثت أن احتضنت ركبتى ، وقد أخذها الشهيق ، وانخرطت فى البكاء ، فانحنيت عليها أهدئ من روعها ، وأسائلها :

ما بك يا بنية ؟ كيف حال أبيك ؟

فرفعت إلىّ عيناً خضلتها الدموع ، وقالت فى لهجة المتعجل :

أمى ماتت . . . أمى ماتت . . .

وعاودها البكاء .

ولم أملك أن أتكلم ، ورجف قلبى رأفة بتلك الصبية فى شعورها الحزين ، فأخذت بيدها أحاول التلطف بها والتسرية عنها ، حتى وقفنا عند حانوت حلوانى فى حارة قريبة ، فاشتريت لها ما يبهج له قلب الطفل الغرير ، وقلت للصبية :

هذا كله لك ولعروسك الحلوة . . .

فأشرق وجه البنية ، وصحبتنى حتى باب البيت ، ثم أخلت يدى من يدها عائدة إلى مكانها على الطوار تفتح لفائف الحلوى وتتذوق .

وصعدت بيت « المعلم ياقوت » أدق بابه ، ولبثت فترة أدق ، وأخيراً سمعت خفق خطوات زاحفة ، تصاحبها سعلة خشنة متمزقة ، وفتح الباب عن الرجل يحيينى ويرحب بى . . . ولما دخلت معه ، تقدمنى باذلا جهده فى حمل مقعد إلىّ ، وهو يميط بجلبابه الغبار عنه ، ويقول :

تفضل يا سيدى بالجلوس ، وانتظرنى قليلا أعد لك القهوة .

فأقسمت عليه أن يريح نفسه ، وأن يعفينى من قهوته ، فجلس على كرسى وطىء بجانبى ، وأنا أتفرس فيه ، وأتفحص خفيّة أمره ، فراعنى منه تغير جسيم : لقد جف عوده ، وتشابكت تجاعيده ، وبدا وجهه كاسفاً عليه زرقة .

وانبرى الرجل يحدثنى بأخباره ، ما جل منها وما دق ، آخذاً بأطراف الأحاديث ، وأنا فى كل لحظة أتوقع أن يفضى إلىّ بما عرفته من طفلته على باب الدار ، ولكنه لم يفعل ، فلم أجد مفيضاً من أن أقول :

لقيت « ست الكل » بالباب تبكى . . .

فأظلت وجه الرجل سحابة دكناء ، وهمهم متثاقل الكلم :

نعم . . . على أمها تبكى . . .

فبادرته أقول :

البقية فى حياتك . . . عجباً . . . مبلغ علمى أنها لم تكن تشكو مرضاً . . .

فأجابنى جامد اللهجة ، وقد أشار بظهر يده إشارة زراية وإهمال :

لقد ماتت . . . وكفى !

وبدا عليه اهتياج مكبوت ، فنهض بغتة كأنه يبغى مخرجاً يتغلب به على أعصابه المستوفزة ، ولكنه ما عتم أن تهاوى على كرسيه ، فملت عليه أتبين أمره ، وأحاول إنعاشه ، فألفيته يغطى عينيه بيديه ، وقد هيمنت عليه نوبة النشيج .

فقلت له أواسيه :

الصبر يا معلم . . . إنك رجل . . . والدنيا لا تدوم لحىّ ، ولا يدوم فيها حىّ . . .

فكفكف الرجل عبراته ، وحملق فى وجهى متهدج الصوت يقول :

أترانى أبكى عليها ؟ أفحسبت أنها ماتت حقاً ؟ عليها اللعنة ولا ردها الله .

فأخذتنى البهتة وأنا أقول :

ماذا فى الأمر إذن ؟

— لقد كذبتُ على ابنتى ، أو قل إنى ضحكت منها ، فأفهمتها أن أمها ماتت ، وحقيقة الأمر أنها حية تسعى على ظهر الأرض . . .

فسألت الرجل مشدوهاً :

ولم ذلك يا معلم ؟

فنكس الرجل رأسه ، يعبث بحاشية ثوبه ، وقال مستكين الصوت ، ذليل النبرات :

لقد هربت . . . تخلت عن الرجل المريض الذى لم يعد صالحاً لها ... مع من كان هربها فيما تظن ؟... مع « عنقود »... ربيبى ، ذلك الخليع الفاسد الذى لم أستمع لنصحك حين رغبت إلىّ فى أن أطرده ، فأبقيت عليه حناناً ومرحمة !

ــ هكذا الناس أبناء خيانة وغدر . . . لا تأس على ما كان !

ــ لست بالآسى على نفسى ، وإنما أنا حزين من أجل ابنتى ، تلك التى أصبحتْ فاقدة أمها ، وعما قليل تفقد أباها أيضاً . . . فترى نفسها يتيمة الأبوين ، ولا تجد حولها من ذوى القربى من يبذل لها حنوا ورعاية . . . ما مصير هذه الصبية من بعدى ؟ إنى اليوم مريض ، وغدا راحل إلى غير عود .

فشددت على يده أقول :

بل ستحيا سعيداً مع ابنتك ، فلا تستسلم للوساوس ، ولا

يسرعن إليك القنوط ، واذكر الله . . . أنت بخير !

فهز رأسه متابعاً قوله ، وصوته بالنحيب مشوب :

لا تخدعنى عن نفسى يا سيدى . . . فصحتى تتدهور ، ويومى وشيك . . . أنصت إلىّ . . . أيقظنى من نومى البارحة ظمأ ، فلم أشأ أن أزعج ابنتى من رقادها لتجلب لى الماء ، واستنجدت بقوتى ، وحاولت جهدى ، حتى استطعت أن أغادر فراشى ، وما كدت أتحامل على السير حتى تهاويت ، ودارت الأرض بى ، فقر فى نفسى أنى قد استوفيت من الدنيا نصيبى المقسوم .

وطأطأ الرجل ، كابى الوجه ، مهدم الكيان ، وإذا نحن نسمع جلبة بالباب ، ونرى « ست الكل » مقبلة تتواثب ، وفى يدها بقية من الحلوى .

وتدانت الصبية من أبيها تلقمه من حلوائها ، فضاء وجه الرجل ، والتفّت ذراعه بخصرها فى حنو واهتياج .

تتابعت بعد ذلك أيام شغلت فيها بشأنى ، وحل يوم الجمعة ، فذكرت صاحبى ، وواعدت نفسى أن أزوره فى الأصيل .

وبينما أنا جالس أترشف من قدح القهوة ، بعد أن أصبت

فطورى ، وأمامى رزمة الصحف أتناولها وأعبر ما فيها على تعجل — إذ بى أسمع نقرات خفافاً بالباب ، فقلت :

من ؟

فأجابنى صوت هين رفيق يقول :

أنا . . . أنا . . . افتح .

فنهضت إلى الباب ، فدخلت الصغيرة ساهمة واجمة ، تدعك أصابعها فى قلق ، وعيناها تائهتان ، فأمررت يدى على شعرها ألاطفها وأقول :

أهلا « ست الكل » . . . ما بك يا صبية ؟

فتشبثت بذراعى مهمهمة تقول :

أنا خائفة . . . أنا خائفة . . .

— مم تخافين ؟ وهل تخافين بالنهار ؟

فسمت بنظرها إلىّ متوسلة ، وجذبتنى مشيرة إلى الباب تقول :

تعال معى إلى المنزل . . . تعال معى . . .

— لماذا ؟ كيف حال أبيك ؟

— هو فى البيت نائم . . . تعال معى . . . أنا خائفة !

واشتدت فى اجتذابى إليها لأخرج معها ، فلم أجد مندوحة من مطاوعتها ، والأفكار فى رأسى تتضارب .

وفى أثناء الطريق استرسلت « ست الكل » تروى قصتها ... قالت :

فى الليل وأنا فى نومى ، علا صوت لا أعرفه ، ففزعت وانكمشت . ولما سكن الصوت جعلت أنادى أبى من تحت غطائى ، فلم يستيقظ ، وما استطعت بعد ذلك أن أنام ، فتسللت مغمضة عينى إلى فراش أبى ، ونمت بجانبه متعلقة برقبته ، وما زلت نائمة حتى استيقظت فى الصباح ، ولكن أبى ظل مستغرقاً فى منامه ، فناديته ، ثم هززته ، ولكنه أبى أن يصحو ... فخفت ، فتركت البيت ، فجئتك . . . لتمضى إلى المنزل معى ، نوقظ أبى . . .

فذهب بى الظن فى شأن الرجل كل مذهب ، ومضيت مع الصبية ، حتى دخلت على أبيها فى حجرته ، فرأيته فى فراشه شديد الامتقاع ، فجعلت أتفحصه ، وما لبثت أن نظرت إلىّ « ست الكل » آخذاً بيدها إلى الباب ، قائلا لها وقد أعطيتها بعض النقود :

اذهبى إلى بائع الحلوى ، فاشترى منه ما يروقك ، وانتظرينى هناك ، حتى أوقظ أباك . . .

وتواثبت على الدرج هابطة .

وبعد وقت اتخذت فيه ما يقتضيه الموقف من إجراء ، قصدت الحارة القريبة أطلب « ست الكل » عند الحلوانى ، فوجدتها فى لمة من الأطفال تزهو عليهم بما تحمل من أنواع الحلوى ، وهى تمنح بعضاً من أترابها وتعرض عن بعض . فناديتها :

تعالى يا « ست الكل » . . .

فأقبلت علىّ ، فهششت لها ، وأمسكت بيدها أسير بها وأنا أقول :

أتحبيننى يا « ست الكل » . . .

فاشرأبت تقول بملء فيها :

جداً يا أفندى جداً . . .

ـ كما أحبك ؟ . .

ـ أكثر يا أفندى .

ـ فلنذهب إذن إلى دارى ، ولتمكثى فيها معى . . .

ـ وأبى ؟

— سيرجع بعد قليل . . . لقد سافر . . .

فصاحت فى دهشة :

سافر ؟ هل استيقظ ؟

— استيقظ وسافر عل عجل ، لأمر مهم ، وإنه لعائد إليك محملا باللعب والحلوى .

— وهل يغيب ؟

— أياماً قلائل . . . ستمكثين معى . . . ألا تحبين ذلك ؟

فبدا عليها مظهر من التخاجل والاستحياء ، فبادرتها أقول :

اتفقنا . . . قبليني إذن !

وانحنيت إليها ، فأرسلت على خدى قبلة ساذجة ، وتركتنى تسبقنى بخطوات سراع ، فتبعتها بنظراتى ، وصدرى تجيش فيه أشتاتُ المشاعر ، وما لبثتُ أن أخرجت منديلى أمسح به دمعة طافرة !

الأمل المنشود . . .

شدّ ما حزن الفتى « سويلم » حين استأثرت المنية بأبيه الشيخ « نوار » . . .

لقد فقد فيه مثلا عالياً للأبوة ، وطرازاً رفيعاً من التقوى ، كما فقد فيه عائلا عظيما ، وكافلا كريماً . . .

كان أبوه يؤم الناس فى مسجد بلدة « الدهارشة » ، ظل فى منصب الإمامة زهاء ثلاثين سنة ، مشهوداً له بنقاء السريرة ، وصدق الورع ، وحب الخير للناس ، وأخلص له الأهلون ، حتى قبضه الله إليه ، وهو يحبو إلى الثمانين .

ولم يكن للشيخ « نوار » من الذرية إلا ولده « سويلم » فقد تخطف الموت سائر أبنائه من قبله ، وعاش له أخيراً ذلك الغلام الذى وهبه الله إياه على الكبر ، فكان لعينه قرة ، يبالغ فى التعهد له ، حتى ليخشى مرّ النسيم عليه .

ولكن القدر أبى إلا أن يداعب الرجل فى فلذة كبده مداعبة ثقلت وطأتها عليه ، فقد أصيب الغلام فى فجر صباه

بمرض عنيف ، ظل ينتابه حتى زلزل أركانه ، وهدّ كيانه . ولم يبارح جسمه إلا بعد أن أحاله حطاماً تزدريه الحياة ، فعاش « سويلم » كأنه هيكل بشرى ، لا إنسان سوىّ . . عينان غائرتان ، ووجه مأكول ، وقامة أشبه ما تكون بعود يابس يوشك أن ينقصف .

وبلغ الغلام الحلم ، فوجد الشيخ « نوار » نفسه يفكر فى مستقبل ولده ، على أى نحو يكون؟ وأية وجهة يسلك ؟ فلم ير إلا أن يعده « للأزهر » ، لكى يكون فيه شيخاً من رجاله الأعلام .

ولبث الأب يقرئ ابنه كتاب الله ، ويتولى تلقينه مبادئ العلم ، وبسائط الدين ، ويأخذه بتعاليم الشرع ، ويبث فى نفسه نزعة العقيدة وروح الإيمان ، وقد كان يغلو فى ذلك ويبالغ ، حتى صرف الغلام عن شئون دنياه ، فلم تعد له خبرة بوسائل العيش ، ولم تبق له طاقة بالكدح فى سبيل الكسب والاغتنام .

وكذلك شب « سويلم » لا يفقه من أمور الفلاحة شيئاً ، ولا يشارك أباه فى القيام على شئون الأفدنة الأربعة التى يمتلكها من أرض الله .

وأبت معقبات المرض أن تزايل جسم الفتى « سويلم » فتمكنت فيه ، تجدّد همه ، وتحرمه ما فى الحياة من لذة ومتاع . حتى إنها جعلته لا يحظى بما حظى به أنداده شباب القرية من زواج .

وكان الفتى يمضى أيامه ، لا شغل له إلا حديث الدين ، يبشر فيه الصالحين بما يوعدون من نعيم مقيم ، ويزّهد الناس فى هذه الدنيا الحافلة بالأوصاب والآلام ، ولا يجد للبشرية فى غير الدار الآخرة سعادة ونعمى .

وتقضت تلك الليالى التى جلس فيها الفتى « سويلم » يتقبل تعازى الناس فى أبيه ، فاعتكف أياماً فى حجرته ، دائب التفكير فى هذا الطارئ المفاجىء ، هذا الموت المحتوم . . . وتناوحت فى رأسه الأفكار والخواطر ، تمثل له ما يلقاه الراحلون عن هذه الحياة من ثواب وعقاب . فاطمأنت نفسه بأن أباه قد انتقل إلى بحبوحة من السعادة والأمن ، فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

واضطر الفتى أن يبارح داره ليعالج من شأنه ما يستوجب رعايته ، ولكنه كان يملأ وقته بالتحدث عن أبيه ، فما يكاد

يلقى إنساناً حتى يلتمس معه أوهن المناسبات ليتطرق منها إلى تعداد مناقب الشيخ « نوار » ، وما كان له من فضل على القرية عظيم .

على أن حاجات العيش كانت تقتضى الفتى « سويلم » أن يبذل لها بعض الجهد ، فإذا ألجأته إلى ذلك الضرورة ، لم يلبث أن يضيق بأول عقبة تعترضه ، فإذا هو يلوذ بالفرار إلى مصطبة الشيخ « مصيلحى » ، يقارضه الحديث فيما كان لأبيه من مكرمات ، وفيما آثره الله به من رحمة ورضوان .

وحان الموعد الذى يجبى فيه الملاك ما لهم عند المستأجرين ، فلم يصب الفتى « سويلم » من إيجار أفدنته الأربعة إلا دنانير معدودات ، أنفق معظمها فى إقامة حلقات الذكر ، ترحماً على فقيد القرية الشيخ « نوار » .

وعلى مر الأيام مست حاجة الفتى إلى المال ، فأقبل على مستأجرى أرضه يتقاضاهم ما بقى فى ذمتهم له ، فجعلوا يعدونه ويمطلونه ، ولا يملون إخلاف مواعيدهم معه ، وما زالوا يراوغونه ويداورونه حتى خرج باليأس من المطالبة ، واستيقن أن الناس مطبوعون على ضرائب شر وأذية ، وأنهم كذبة

منافقون ، لا شرف لهم ولا دين ، فأحسّ خيبة الأمل تعمر ما بين جنبيه ، وبدت له الدنيا ظلمات بعضها فوق بعض ، وشاهت وجوه الناس فى عينه ، فلم يعد يأنس بهم أو يبش لهم ، إلا صديقه الفقيه الورع الشيخ « مصيلحى » ، فكان دائم التردد على مصطبته ، ينعيان معاً على هذه الدنيا ما حوت من مساوئ وآثام .

ومرة وهما يتناقلان حديثهما المألوف ، فى موضوعهما المعاد ، عرض الشيخ « مصيلحى » لحادثة وقعت فى القرية منذ عهد بعيد ، وكان فيها للشيخ « نوار » كرامة لا تنساها القرية وإن تواترت السنون ، فأنصت الفتى لهذا الحديث ، مأخوذ النفس ، مسحور السمع ، حالم النظرات ، وإذا هو يغمغم قائلا :

ترى أين أنت الآن يا أبتاه ؟

فحدق فيه الشيخ « مصيلحى » وهو يخلل لحيته بأصابعه ، ثم قال له :

فى الجنة يا بنىّ ، مع المتقين الأبرار !

فبدا الفتى فى شغف يقول بصوت خافت حنون :

الجنة ؟ . . . الجنة ؟ . . . ناشدتك الله أن تزيدنى بها علما .

فتنحنح الشيخ غير مرة ، وانطلق شائق الأسلوب ، يفضى بما عنده من وصف الجنة ، وما فيها من هناءة ومتاع ... ولبث يطنب فى بيان ما تحتويه مما تشتهى الأنفس ، وتلذّ الأعين ، فيستمع الفتى لذلك فاغراً فاه ، تبرق عيناه ، وإذا هو ينفث من صدره تنهدة جياشة ، ولسانه يقول :

من لى بالجنة ؟ من لى بها ؟

فتبسم الشيخ يجيبه :

إنها لك بعد عمر طويل . . . أنت الطيّب ابن الطيّب !

فنكس الفتى رأسه ، وهو يقول :

أتطلب لى طول العمر فى هذه الحياة المشوبة بالشقوة والبأساء ؟ ماذا فى الدنيا من خير يرجى ، أو متعة تنال ؟

واستبد بالفتى هذا التفكير ، فكان إذا أوى إلى فراشه وملكته عينه ، تمثل له أبوه فى حلم بهيج ، متربعاً على أريكة من ذهب ، بسطت عليها الحشايا الوثيرة ، ومن حوله ما لذ وطاب من مناعم العيش ، وعلى وجهه يتلألأ نور . . .

فلا يكاد يلمح ابنه ، حتى يبتسم له ، وكأنه يومئ إليه يدعوه !

واشتد زهد الفتى فى الحياة من حوله ، فهو لا يطعم إلا ما نزر ، ولا يشرك الناس إلا فيما ينوبهم من المآسى والأرزاء . فما كانت تفوته جنازة ، ولا كان يعوقه شىء عن حضور مأتم ، وأطيب أوقاته ما يمضيه على ربوة القبور !

وكان أحياناً يجد نفسه ضائقاً بمحبسه فى البيت ، فينطلق إلى الطريق ، فرداً يستروح ، وإذا به تسوقه الخطا إلى شريط القطار ، فلا يفتأ يغدو ويروح ، وقد وطن عزمه على أمر مقرر محتوم ، يظفر منه براحة الأبد . . . ويظل الفتى على حاله ، سابح النظرات فى عباب الأفق ، حتى تصك سمعه جلجلة القطار العتىّ فى هجمته الخاطفة ، فيحس الأرض تحت قدميه قد زلزلت زلزالها ، وإذا هو مزعَج قد استيقظ من غفوته ، وإذا هو يقفز من مكانه بعيداً عن شريط القطار ، كأنما قذفت به يد قاهرة !

وفى الحين بعد الحين ، كان يتخذ مجلسه على حافة تلك الساقية المهجورة فى أقصى القرية ، فيدلى ببصره فى

مهواها المظلم السحيق ، يتبين فى قاعها سفينة نجاته من عالم الشرور ودنيا الأوزار . ولا يكاد يميل على شفا البئر ، مسلما جسمانه ، حتى يستشعر الرعشة تصدم أوصاله ، فلا يلبث أن يرتد ، وقد أخذه الفزع من كل جانب ، فيتخذ سبيله إلى بيته كئيباً يثور على نفسه الخوارة وعزمه المهزوم !

وتثاقلت هموم الفتى على كتفه ، فإذا نظر إلى داره التى درج فيها وترعرع ، لم يجدها إلا سجناً تصفر فيه وحشة وانقباض ، وإذا مد عينيه إلى الطريق من حوله تراءت له الدنيا كأنما تنفث فى وجهه دخاناً تختنق منه الأنفاس . فأما مجلسه عند الشيخ « مصيلحى » فلم يعد يطيب له ، بل إنه أصبح يتبرم بالمسجد حين يحتشد بقصاده من طلاب الصلاة .

وتضاءل نصيب الفتى من دنيا الناس ، حتى إنه قصر خطاه على الطريق بين بيته وبين مقبرة أبيه ، فهو يقضى بجانب الرمس أطول وقته تائهاً فى بيداء خياله ، يحاول أن يقاسم روح أبيه ما تنعم به فى دار الخلود .

وذات يوم والوقت أصيل ، تسلل الفتى « سويلم » من

داره ، مشتملا بعباءته البالية ، لا تبدو منه إلا عينان تبصان فى حيرة واضطراب ، وظل الفتى يسير حتى فارق البلدة ، فواصل سيره يسأل ويستخبر ، وقد أقبل عليه الليل وتغشّاه ، وهو ما برح ماضياً فى الطريق . . .

وتوخى الفتى وجهة المستنقع الكبير ، حتى أسلمته خطاه إلى خرائب ودمن ، فاخترمها ينشد ضالته ، إلى أن تراءت له شعاعة تخبو وتلوح ، فاستهدى بها حتى أبلغته إلى بيت متهدم ، فمثل أمام بابه يحدق فيه .

ولما استيقن أنه لم يضل سبيله ، وقف متردداً لحظات ، ولكنه أذكى من عزيمته واستجمع ، فدفع الباب يحث خطاه فى ممشى ضيق ، ثم ألفى نفسه بغتة فى قاعة ترقّ فيها الظلمة ، ولا يفصح فيها الضوء الشحيح إلا عن أشباح غامضة فى شبه حلقة ، فلم يلبث الفتى أن زكمته ريح غير مألوفة اختنقت منها أنفاسه ، فمكث هنيهة يحاول أن يميز هذه الأشباح ، وأحس بجسمه تعروه قشعريرة ، فعجب من نفسه كيف سولت له قدمه أن يطأ هذه البقعة المريبة ، وهم بأن يعود أدراجه ، هارباً من ذلك الوكر المرهوب ، ولكن صوتاً أجش النبرات ، علا يسأله :

من أنت ؟

وإذا بالفتى يرى وميض العيون يترامى عليه كأنه سهام تضرب حوله الحصار .

ورقيت إلى سمعه همهمة استياء ، زادته من خشية ورهب . . .

واستأنف الصائح يقول :

من أنت ؟

فألفى الفتى « سويلم » نفسه يتدانى ، وهو يجيب فى صوت متهدج :

أريد أن ألقى « عم خفاجة » .

فنهض إليه صاحب الصوت ، أعجف الوجه ، عليه جهامة وقطوب ، وجعل يتفرس فيه بعينين غائرتين تحت أهداب غزار ، وما هى إلا أن قال له :

فيم سؤالك عن « خفاجة » ؟

— أريد التحدث معه فى شأن خاص . . . فى مهمة خطيرة !

وأمسك الرجل بيد الفتى ، وقاده إلى حجرة داخلة ،

فيها شمعة موقدة تثير فى الأرجاء ظلالا كأنها رءوس الشياطين . . . وهنالك فى ركن من هذه الحجرة يتراءى شبحان يتسارّان فى اهتمام ، مالبثا أى أن رفعا أعينهما يستوضحان من الطارئ . فدفع الرجل بالفتى نحوهما ، وهو يقول :

ضيف يطلب « عم خفاجة » فى شأن خاص . . . فى مهمة خطيرة !

وما أسرع أن خلت الحجرة ، إلا من الفتى « سويلم » وهو جالس قبالة رجل ضئيل الجسم ، صلب العود ، له عينان تتقدان كعينى النمر ، يقول :

أنا « خفاجة » . . . ماذا أتى بك يا شيخ « سويلم » ؟

فارتجف الفتى يغمغم :

وهل عرفتنى ؟

فأجابه الرجل فى صوت لين عطوف :

ومن ذا الذى لا يعرف الشيخ « سويلم » ؟ ومن ذا الذى لا يعرف ابن الشيخ « نوار » ؟ من دلك على مكانى ؟

فاطمأن الفتى شيئاً ، ولكن بصره جعل يزيغ فى الحجرة ، ويتيه .

ثم ابتدأ يقول :

لقد كنت أبحث فى الخفاء عن شخص أركن إليه ، فى مهمة عظيمة ، فدللت عليك . . . ويعلم الله ما لقيت من عناء فى سبيل الوصول إليك .

— أهلا بك . . . أخبرنى عن مهمتك .

فصمت الفتى برهة يهم بالكلام ولا يبين ، ونظراته تضطرب يمنة ويسرة ، فقال له « خفاجة » وهو يربت كتفه :

تكلم . . . اطمئن إلىّ . . . ما مهمتك ؟

فاندفع الفتى يقول فى عزم وحزم :

المهمة هى تخليص روح من جسد . . . ألا أستطيع أن أعول عليك ؟

فقال « خفاجة » مدهوشاً :

أتريد إزهاق روح أحد ؟

فصاح الفتى من أعماق نفسه يقول :

بل أريد تخليصها من عالم البؤس والشقاء !

— لم أفهم مرادك . . . أوضح !

ـ مسألتى واضحة . . . عشرون جنيهاً لك جزاء على تخليصك هذه الروح . . . عشرة مقدمة ، ومثلها تنالها ساعة انقضاء المهمة . . . عشرون جنيها . . . هى كل ما بقى لى ، هى كل ما أملك !

ـ عوّل علىّ . . .

ـ إنى مشترط عليك شرطاً .

ـ أى شرط هذا ؟

ـ أن تكون الضربة فى مقتل ، حتى يخر المضروب صريعاً من ساعته !

ـ سيقضى فى طرفة عين . . .

ـ عوفيت يا عم « خفاجة » ، هاك الجنيهات العشرة !

وقدّم الفتى إلى الرجل رزمة من أوراق النقد ، فأخذها الرجل فى غير مبالاة ، وقذف بها فى جيبه ، وسكت « سويلم » قليلا ، وقد اكتسب وجهه سيماء الطمأنينة والاستقرار ، وكأن عبئاً قد انزاح عن كتفيه ، ثم أخذ يهمهم :

سوف يكون غريمك فى بلدة « الدهارشة » مساء غد ، وسيمضى بعض وقته فى بيتى ، ثم يخرج بعد صلاة العشاء

بساعة كاملة ، متخذاً طريق الجرن القديم ، ثم يحيد إلى حقل النخيل . . . ناحية مهجورة أراها تصلح لإنجاز مهمتك على خير وجه . . .

ـ لا تحمل للأمر همّاً !

ـ ستكون مع الرجل الجنيهات العشرة المؤخرة . . . هى حقك الباقى . . .

فقال « خفاجة » مبتسما فى مداعبة :

هل لك أن تصارحنى بجليّة الأمر ؟

ـ هذا سرّى لا أبوح به .

ـ شأنك وما تريد .

ـ سترى غريمك وحيداً بلا رفيق ، ملثما بعباءته السوداء ، راجلا يحث خطاه .

ـ ما اسمه ؟

ـ ستعرفه فيما بعد .

فصمت « خفاجة » حيناً ، ثم أقبل على محدثه متقد العنيين ، قائلا :

أما إن كانت هناك مكيدة تريد أن تحوكها لى . . .

فقاطعه الفتى يقول فى عزم وتأكيد :

حاشاى أن أفعل !

— لئن وقع بى ضرّ لتكونن فريستى ... لا تنجو ببدنك منى !

وفى الموعد المضروب ، وقد أظلت البلدة ظلمة العشية ، خرج من بيت الشيخ « سويلم » شخص وحده ، تلفه عباءته ، فتخفى وجهه ، وهو ماض فى طريق الجرن القديم إلى حقل النخيل . . .

وما إن قارب الحقل ، حتى هم بأن يحث خطاه ، فإذا هو قد اضطربت مشيته ، واختل اتزانه ، ولكنه ما لبث أن اعتدل مندفعاً يوسع الخطا ، فلما توسط الحقل برز من خلفه « خفاجة » شاهراً فى يده هراوته الصلبة ، فأهوى بها على رأسه ، فسقط من فوره يترنح ، وهو يغمغم :

إلى جنة الرضوان !

أولادنا

مجموعة من القصص الرشيقة المفيدة
يجد فيها الطالب فى جميع مراحل النمو
المتعـــة والثقافـــة وسمو النفس .

		ص
١	عمرون شاه	١٢
٢	مملكة السحر	١٢
٣	كريم الدين البغدادى	١٢
٤	آلة الزمان	١٢
٥	الأمير والفقير	١٢
٦	كتاب الأدغال	١٢
٧	بينوكيو	١٥
٨	نبوءة المنجم	١٢
٩	روبن هود	١٢

تصدرها

دار المعارف بمصر

بإشراف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

893.7T136
Z7

BOUND

JUN 27 1957

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58880844
893.7T136 Z7 Zamir al-hayy /
893.7T136-Z7